قصص

الفخ

أحمد عودة

منشورات وزارة الثقافة

أحمد عودة

... ينتظم هذه القصص خيط ثيمي متقارب يتمثل في إبراز السلبي في الشخصية الإنسانية بهدف إدانته، وتبدو خبرة المؤلف عالية في قدرته على نمذجة شخصياته القصصية ضمن بناء فني متماسك يجعل لشخصياته حضوراً من لحم ودم وخاصة حين يكون هذا الحضور سلبياً.

وكذلك في محاولته لبناء أنساق لغوية تعطي قصصه نكهة مميزة، من خلال التشبيهات الغريبة التي يوردها في جُمله، أو في طريقة الوصف، وصف الحدث، وصف السلوك، وصف الشخصية الفنية...

المملكة الأردنية الهاشمية - عمان
وزارة الثقافة / شارع وصفي التل
هاتف ٦٩٦٢١٨/٦٩٦٥٨٨ - ص.ب ٦١٤٠

الفخّ

مجموعة قصصيّة

أحمد عودة

الفخّ

أحمد عودة

قصص

الأعمال الكاملة

(9)

الطّبعة الأولى

1996

منشورات وزارة الثّقافة الأردنيّة

مطابع الدّستور

الطّبعة الثّانية

2022

دار الجيل العربيّ للنّشر والتّوزيع

رقم الإيداع في المكتبة الوطنيّة:

1996/8/1027

رقم التّصنيف: 813

تصميم الغلاف:

الفنان يوسف الصرايرة.

تحقيق: مظهر عاصف.

التّعريفُ بالكاتب:

هو الأديبُ الأردنيّ الرّاحل «أحمد عودة» من مواليد قرية إذْنبَّة- الرّملة- فلسطين المحتلّة- عام 1945. ويُعدّ أحد أعمدة رابطة الكّتاب الأردنيّين، وأحدَ مؤسّسيها الأوائل، وعضوًا في اتّحاد الكتّاب العرب منذ عام 1982. احترفَ كتابةَ القصّة والرّواية ونصوصِ المسرح قبل احترافه كتابة المسلسلات المتلفزة، ويعتبرُ من روّاد المشهد الثّقافيّ الأردنيّ فقد كانَ يرفدُ الصّحف والمجلات الأردنيّة والعربيّة بمقالات نقديّة أدبيّة، وببعض البحوث الفكريّة واللّغويّة.

تمَحوَرت أعمالُه الورقيّة حول القضيّة الفلسطينيّة بشكل كبير، وإن تطرَّق من خلالها لكينونةِ الإنسان وعلاقته مع الأرض والآخر في كلّ مكان، ناهيك عن قضايا الأمّة العربيّة بمجتمعاتها وهمومها المشتركة، كما امتازت لغتُه العربيّة بالجزالة السّلسة كانعكاسٍ تامّ لمهنتهِ الّتي مارسها كمدرسٍ لها في مدارس القدس وعمّان حتّى تقاعده، وتفرّغه الكامل للإنتاج الأدبيّ.

الأديبُ من أوائل الرّوائيّين العرب الّذين اتّجهوا لكتابة المسلسلات التّلفزيونيّة مواكبةً منهم لعصر الصّورة والصّوت، ومن الرّواد الّذين نقلوا اللّهجة الأردنيّة العاميّة والرّيفيّة والبدويّة عبر مسلسلاتهم إلى الشّاشات العربيّة.

هذا وقد مارس الكتابةَ الإبداعيّة طوال حياته قبل أن توافيه المنيّة في «حيّ الرّبوة- ماركا الجنوبيّة- عمّان- الأردن». في مساء 9 نيسان من عام 2016م.

مؤلفاته الورقيّة «الطبعة الأولى»:

حين لاينفع البكاء- قصص- عمّان- مكتبة الشّرق- 1973.

زعترالتلّ- قصص- عمّان- رابطة الكتاب الأردنيّين- 1979.

المنعطف- قصص بغداد- وزارة الثّقافة- 1980.

الولادة والموت- قصص- دمشق- اتّحاد الكتاب- 1982 .

جمجوم- قصص- بغداد- وزارة الثّقافة والإعلام- 1982.

ساعات الصّفر- رواية- بيروت- دارالوحدة- 1983.

الفواصل- قصص- دمشق- اتّحاد الكتاب العرب- 1984.

الكلب المخدوع- قصص للفتيان- عمّان- دارابن رشد- 1986.

عيون المدافع- قصص- دمشق- اتّحاد الكتاب- 1995.

الفخّ- قصص- عمّان- وزارة الثّقافة- 1996.

الباشكّار- رواية- عمّان- دارالينابيع- 1996.

مسرحيّات:

الكنـــــز

أصـل المسألـة

شلـّة الأنـس.

أفلام تلفزيونيّة:

المريض

عذابـات حَلُّـوم

طلقـةُ الرّحمـة

الانتظـار.

أهم المسلسلات المُتلفزة:

ويبقى الأمـل- باللّهجة الأردنيّة.

الفرح المنسـيّ- باللّهجة الأردنيّة.

الحائـــــر- باللّهجة الأردنيّة.

حــارة الزّيـن- باللّهجة الأردنيّة.

الرّيحانيّـــة- باللّهجة الأردنيّة.

خطّ النّهاية- باللّهجة الأردنيّة.

خطّ البدايـة – باللّهجة السّعوديّة.

الزّمن دوّار- باللّهجة السّعوديّة.

مرايــا الحـبّ- باللّهجة المصريّة.

هـذا قـراري- باللّهجة السّوريّة.

الأمانـي المرّة- باللّهجة السّوريّة.

المقدّمة:

عشرون عامًا وأكثر هي المدّة الفاصلة بين كتابةِ هذه القصص ونشرها ضمن منشورات وزارة الثّقافة الأردنيّة في طبعتها الأولى عام 1996م؛ لكنَّ القارئَ لهذه المجموعة لن يشعرَ بفروقات الزّمن هذهِ في العصر الحديث، لأنَّ قلمَ الأديب تفاعلَ مع الإنسان من الدّاخل أكثرَ منه في الخارج، حتّى إذا أذابه في محيطهِ الخاص كان شكلُ الذّوبان هذا ذوبانًا عامًّا؛ يصلحُ أن نستنسخَ منه حدثًا وزمنًا مطابِقينِ له في الواقع الحالي والزّمن الآنيّ.

ولعلَّ هذا أكثر ما يمتازُ به قلمُ الأديب الرّاحل «أحمد عودة»، أي استشراف الآتي وتسليط الضّوء على ما قد يحدث لا ما يحدثُ وحدث؛ لذا أفردَ للصّراعات النّفسيّة مساحةً كبيرةً في النصّ الواحد مكّنته مِن تناولِ يدِ القارئ ووضعها على موضع الألم والتخبّط في جسدِ أو روحِ أبطال قصصه؛ فالبطلُ الّذي قرَّرَ_على سبيل المثال_ أن يبيعَ أعضاءه في النّهايةِ ينتمي بظروفهِ ومحيطهِ وصراعاته لمجتمع الألفيّة الجديدة أكثر من انتمائِه لحقبةِ وتزامنيّة النّص السّبعينيّ.

ربّما لأنَّ النّصَّ المسبوك ببراعةٍ لا يشيخ؛ على النّقيضِ من مُمثّلِهِ في القصّة الواحدة، حتّى إذا جنحَ للعزلةِ تجمّدَ عند نقطةِ النّهايةِ؛ كما حدث مع إحدى الشّخصيّات الّتي تفاجأت بقطارِ العمر يقلّها

رغمًا عنها إلى محطّة لطالما تجاهلت وجودَها في رحلةِ العمر القصيرة.

أمَّا ما يتعلّق بفضاء النّصوص بشكل عام فقد جاء على كلمةِ الغلاف ما يختصر الكثير من النّقد والتّشريح حيث وردَ حرفيًّا: «تنتظمُ هذه القصص في خيط ثيميّ متقارب يتمثّل في إبراز السّلبي في الشّخصية الإنسانيّة بهدف إدانته؛ وتبدو خبرةُ المؤلّف عاليةً في قدرته على نمذجةِ شخصيّاته القصصيّة ضمن بناء فنيّ متماسك؛ يجعلُ لشخصياته حضورًا من لحم ودم خاصّة حين يكون هذا الحضور سلبيًّا.

وكذلك في محاولته لبناء أنساق لغويّة تعطي قصصه نكهةً مميّزة؛ من خلال التّشبيهات الغريبة الّتي يوردها في جُملهِ، أو في طريقةِ وصف الحدث، وصف السّلوك، وصف الشّخصية الفنيّة».

مظهر عاصف

مساحاتُ الذّاكرة

لا يعرفُ كم تبلغُ السّاعة الآن، اللّيل كما يراه من الطّاقةِ عباءةُ أعرابيّ ضاعَ لونُها برحلةٍ طويلةٍ في رحاب الصّحراء. يلقي نظرةً كسلى على الفراش المُجاور. لم تعد أمّه بعد.

«لو تعرفُ أينَ تذهبُ تلك المرأةُ؟ فقط لو تعرف! هي لا تخبرُك، وأنتَ ما عدت تسألُها بعدما قالت لك: انتبه لدروسك أفضل. ابتسامتُها الّتي ترشّها عليكَ كلّ صباح تعجزُ عن اغتيال الشّك لديك. إنّها عذابٌ أبديّ تراهُ سافرًا في عيون الطّلبة، وتسمعُه في همزهم ولمزِهم حين يتحوّلونَ إلى خليّة نحل. ملاطفاتُها البكرُ ضحكٌ في مأتمِ عزيز. يومَ أن كنتَ بحاجة إلى حنانها أغلقَت دونك صدرَها وفردَتْ جناحيها لأبيك. أين تذهب تلك المرأة؟».

يسمعُ العنزَ بجانبهِ تطحنُ التّبن. «لعلَّ هذي العنز مجبرةٌ على البقاء. لَكَمْ تلطمُك هي الأخرى بالعقوق! تنسى أنّكَ تطعمُها وتسقيها وتحبُّها. تنطحُك وتهرب إلى قطيعٍ فيه تيسٌ كبير، تتمسّحُ به وتهزُّ ذيلَها مُخفيةً قرونَها. أين تذهبُ تلك المرأة؟».

رأسه جاثمٌ على الوسادة. يجرُّ النّوم فيه أطرافا مثقلة بالقيود. بقايا أحلام جميلة تسحبُ أذيالها الباذخةَ أمام عينيه، تعيدُه إلى عوالمَ

مزروعةٍ بالسّحر. يتذكّر أنّه نام وهو يحتسي أغنية أفرَغَت فيها أنثى شبقةٌ آهاتِ اللّوعة والحرمان.

طرحتهُ داخل أنشودة تزفّها يدُ النّسيم برفق وأناة. ألصقَ المذياع إلى صدره، تمنّى لو أنّه يتّحد أو يذوب بشيء ما؛ طريٍّ ناعمِ الملمس. رأى المغنية تتلوّى بغنج داخل صحن كبير؛ يتصاعدُ منها بخارٌ شهيّ.

تناول سكينَ رغبتهِ وراح يقطّع لحمَها شرائحَ يمضغُها بشرَه. تأوّهت وتلوّت. التهب جوفهُ بنار كاوية. مدَّ يدَه إلى الماء. سقطَ في بركة آسنة. تحسَّسَ فخذيه. ودَّ لو تنام يداه هناك للأبد.

ينظرُ إلى الفراشِ المجاور. يرغبُ في أن يمزّقَه ويطعمُه لوحش اللّيل. أضراسُ العنز تقرمشُ وجهَ الصّمت. تدحرجُه على أرضٍ وعرة ناتئةِ الصّخر، ظلُّها على الجدارِ وحشٌ أسطوريٌّ دميمٌ ينام أسفلَ صورةٍ لأبيه. «ها هو ماثلٌ أمامك. لم يمت ذاك الرّجل. ملامحه القاسية وعيناه اللّتان بلا قرار. ها هو ماثلٌ أمامك. شارباهُ ذؤابتا خنجرٍ معقوفٍ يغوصان في صدرك. ماذا عساها تقولُ أمّك لو أنّك فقأتَ هاتين العينين وطمستَ معالمَ هذا الوجه؟ ماذا عساها تقول؟ وأنت؟ ماذا قلتَ لها حين خلعَتْ عنها ثوبَ الحداد بعد يومين اثنين من موته؟ ماذا قلت لها؟ لا شيء. كأنّما الميتُ شخصٌ آخرُ غير أبيك.

كنتَ دُمَّلًا كريهًا في جسم هذه العائلة الصّغيرة. تطعُنك عيونهما على الدّوام. عينا العنز كانتا أكثرَ رحمة. هي أقربُ إليك

من أبويك. تصغي لك حين تثرثر أو تغني بحزن. بضعُ مرّات وحسب تمرّدتْ عليك. بيد أنّ نهايتَها أبدًا في الزّاوية معك.

حين أفردَا لك فراشًا حاولتَ أن تتمرّد. صرختَ وضربتَ الأرضَ بقدميك مُعلنًا ثورتَك العارمة. امتدَّت إلى وجهك يدٌ قاسية، قتلت في جوفك الصّرخةَ ودفَنتها هناكَ جثّةً هامدة. قال صاحبُ هذه الصّورة: ماذا؟ أوَ تظنُّ نفسك صغيرًا؟ ثمّ برَمَ شاربيه و رمى أمّكَ بنظرةٍ ما لبثت أن ذابَت لهفة وحنانا؛ تلقَّفَتها منه غامزةً تضحك. تكوَّمتَ على الفراش بجانب العنزِ تتسمّعُ من هناك إلى حديثٍ غدا يتكرّرُ كلّ ليلة. حديث تبدؤُه أمّكَ دائما:

- هيّا

- ولكن الولد لم ينم بعد.

- ولو! ما يزال صغيرًا على الفهم.

- أنتِ فاجرة...

وتضحك ضحكتها الهَلوك، ويتصاعدُ في التوّ لهاثٌ و خُوارٌ وحمحمةٌ وشهقاتٌ يمسكُ بعضُها برقاب بعض؛ وأنتَ ما تزال هناك، ترى بعينين نصف مغمضتين كتلةً من اللّحم تتحركُ بلا نظام. يعقبُ هذا كلّه تنهّدةٌ طويلة تختمُ بالشّمع أقفالَ قلبك فيما

تظلُّ العنزُ تطحنُ في اللّيل ما خبَّأتَه في النّهار. تظلُّ مثلها تطحنُ في رأسك أفكارًا تنهشُك.

فكرةٌ واحدةٌ منها تموتُ في هذا الرأس وتحيا، تغريك بأن تلقي عليهما السراجَ وتلقي بنفسك فتغدو معهما وجبة دسمةً؛ تلوكها النارُ بأضراس حامية تسلّمك بعدها إلى أحضانِ راحة أبديّة.

الإلحاحُ من جانب أمّك والرفض الكاذب من أبيك. ثَمَّ طوفانٌ من لحمٍ آدمي يأكل بعضُه بعضًا.

- هيّا

- والولد؟

- إنّه في البحر السّابع من النّوم. هيّا.

- أنا تعبان يا جميلة.

- تعبان؟

وتضحك ضحكتَها الهلوك.

- في النّهار تحرث، وفي اللّيل تزرع، ازرع. ازرع.

ترنُّ يدٌ على صدغٍ أو فخذٍ عارية، لست تدري. بالتأكيد هي يدها على صدغه. حين انتزعاك من عالمك الدّافئ بينهما وألقياك مع العنزِ في الزّاوية قالا إنّك كبرت. خدعَاك وصدَّقت لفترة. أقرانك في المدرسة يقولون إنّك كبرتَ قبل الأوان. كانا يرميانك في

بحرٍ هادر من الرّغبات. لم يعد يجدي وضعُك الغطاءَ على أذنيك وعينيك كيلا تسمعَ أو ترى. دأبتَ على انتظارِاللّيل بصبر نافذ. تطلقُ حواسَك العشر إلى الفراش المجاور. تدبُّ فيك حرارةٌ غريبة. تهزّك يدٌ جهنميّة لا ترحم. يغيبان عنك. تعيشُ في عالمِ آخر تعلّمت كيف تصنعه لنفسك. يغيب عنك لهاثُهما لتتسمّعَ إلى لهاثِك أنت، إلى خوارك أنت.

لقد تغيّرت. والعنزُ أيضا تغيّرت. لم تفهم في البدء سرَّ ثغائها وشرودها وتمرّدها على طاعتك لتلحق بالقطعان. اقترب منها أبوك. رفع ذيلها ثمّ هزَّ رأسَه وابتسم ونادى:

- جميلة.

جاءت وألقت يدَها على كتفه بدلال وسألته بعينيها أكثرَ من سؤال تصبُّ كلُّها في خانةٍ واحدة. خيّب ظنَّها بأن ضحِكَ وهو يشير إلى العنز:

- إنّها عاشقة.

دارت عيناها دورةً كاملة ومن ثمّ ضربَته على صدره، والتصقت به أكثر.

- لقد جربتَ على ما يبدو الإناثَ كلّها.

قَهقه من شدقِه الواسع وضمّها إليه قبل أن ينتبه إليكَ فيرجمك بعينينِ تحولتا فجأةً إلى رصاصتين:

- خذها إلى كبش مسعود.

وأعطاك بضعة قروش.

- اشترِ للكبش رطلَ شعير.

رأيت هناك كيف تحوّلت العنزةُ إلى لبؤة تنكّرت لك دفعة واحدة. نطحَتك فأرخيتَ الحبلَ فراحت تركض إلى الكبش. تمسّحت به وهزّت ذيلها. اعتلاها فدارت عيناها بنشوةٍ مذهلة. نسيَتك تمامًا. ذابت همهمةً وحمحمة. أطلقَت شهقاتٍ تسمعُ مثلَها الكثيرَ في الفراش الآخر.

ربتَ مسعود على كتفك:

- قل لأمّك مبروك.

ثمّ ربتَ على كفلِها ضاحكًا.

- هيا اذهبي يا عروس.

حرَنت ومانَعت في العودة معك. تسمّرت مكانَها وعيناها على الكبش المُتحفّز. لم تر في عينيها من قبلُ مثلَ هذي اللّهفة وهذا الصّفاء.

طبطب مسعود على ظهرها يدفعُها خارجَ البوابة.

- هيا. لا تحرَني. كلّ مرّة برطل.

نظرتَ إليـهِ مستفهمًا. قرصَ خـدّك وحـرّك أصابعَـه بفجور.

- اسأل أمّك عمّا تطعمُ والدَك عن كلّ مرّة. اسألها.

عندها تنبّهت إلى أنّ أمك تخصُّ زوجَها بأصنـافٍ كـان يطالك منها رائحتُها الشّهيّة وحسب. دأبت تلك المرأةُ على أن تضعَ أمامك طعامًا بلا رائحة أو مذاق. تنظر إلى وعاء يتصاعدُ منه بخارٌ شهيّ ثمّ تنظر إليها تدقُّ رأسَك بإبهامها.

- هذا لأبيك، إنّه يا حبيبي يشقى ويتعب.

كانت تطعمُه بيديها بينما قميصُها الشفّاف يفضحُ لحمَهـا الأبيض.

- كل. أقطعُ عن فمي لأطعمك.

يضحك عن فم محشو.

- كلُّه عائدٌ إليكِ يا جميلة.

تمسكُ بشارِبه الكثّ. تهزّه برفق.

- يا حبيب جميلة. كُلْ . كُلْ.

ويأكلُ. كان شرهًا كأنّما يقرّرُ بعدَ كلّ وجبة أن يصـومَ شهرًا، وحين يفقدُ شهيّته بسبب وعكة ما تلازمُه كظلّه وتشاركه المرض. كانت تحبّه أكثرَ ممّا تحبُّ العنزُ كبـشَ مسعود. لقد نطحتُه مرّة. حينَ مات بضربة شمس أغارت عليه في الحقل. قلتَ جازما: لفرط حبّها له وبكائها عليـه ستلحقُ به في التوّ، وحيـن خيَّبت ظنّك ولبِسَت ثـوبَ الحداد، قلت: إنّها لن تخلعه. بكت العنز أيضًا صاحبَها بثغاء موجع. رفعت أمّك ذيلها وتبسّمت.

- آه، إنّها عاشقة.

نظرتَ إليها طويلاً. تمنيت لو تختبئ في عينيها إلى الأبـد قبل أن يفارقهمـا الحـزن، تذكّرت كلامَ أبيـك عـن العنز. جهّزت نفسَك كيما تشاهدُ منظرًا فريدًا بات غيابُـه عنك يؤرّقك. قلت لها بحماسة:

- سأخذها إلى كبش مسعود.

ضربتك على كتفك ضاحكة. نزَعَت عنها ثوبَ الحـداد بلهوجة.

- بل سآخذها أنا. اهتم أنت بدروسك.

تبرّجت وخرجَت تميسُ أمامَ العنز الّتي كانت بدورها تكاد تطير. لم تأخذ معها رطلَ شعير. لم تقف عند هذا الرّطل طويلًا. ما وقفتَ عنده إنّها سلبَت منك حقًّا خصّك به أبوك. تبعتها لغاية واحدة: أن تشهدَ الصّفاء في عيني العنز. مـاذا رأيتَ هناك؟ أمّك تدفـعُ بـالعنز إلى الكبش وتسبق «مسعود» إلى الدّاخل .لم تُطِق أن تشبعَ العنزُ

غلواءها. انتزَعتَها من تحت الكبش وعدتَ بها قسرًا إلى البيت. ظلّت تنطحك وظللت تضربُها حتّى أصـمَّ ثغاؤها السّماء».

تحيـنُ منـه التفاتةٌ إلى الفراش المجـاور. يحـدّق إلـى صورة أبيه على الجدار، تستفزّه ملامحُه وذؤابتا شاربه. ينقلُ عينيه إلى العنز. ألفاهـا تحـرّك رأسها برعونة. يشعرُ بألسنة نـار تتناوشُـه. يترك الفراش. يصعد إلـى الجدار. ينتزعُ الصّـورة، يُلقي بها أرضًا. يدوسُـها. يحملُ العنز. يعلّقُها بأنشوطة في السّقف. يشدّها بشراسة. تضطربُ ثمّ تستكينُ وتهمـد. يفركُ راحتيه سرورًا ثمّ يتّجه إلى الفراش لينام نومًا عميقاً لم يألفه من قبل.

تشرين الثاني ١٩٧٤م

دائرةُ الظّل

أكثرُ ما أدهشها أن يتحوّلَ ذاك المخرجُ من حاله المعتادة؛ حالِ الفظاظة والقسوة إلى الرّقة واللّطف. وجهُه الّذي خَبِرَتْهُ عابسًا على الدّوام، متشنّجًا على الدّوام، غدا مسرحًا تعتليه ابتسامةٌ وإن تك متردّدة. أدهشتها حالُه فأمعنت فيه النّظر. لأوّل مرّة ترى أسنانه منتظمة، مرصوصة، ناصعةَ البياض لا يضغطُها أو يصرفُ بها طالبًا من الكلِّ أن يحذو حذوَها هي الّتي يقول دائما عنها «خُلِقتْ ممثّلة».

مع هذا لا لم يسبق له أن عاملها بمثل هذا القدر من الدّماثة والرّفق، أو أغدقَ عليها مثلَ تلك الابتسامة؛ ولا اعترى وجهَه ذاك المزيجُ من الارتباك والحرج.

قدَّم لها بنفسه مَقعدا. جلسَت عليه بدهشتها الكاملة. شرَع وهو مُنكّس الرأس على غير عادته يطري تفانيها في خدمة المسرح، وبالذّات يطري دورها الأخير.

أعجبها الإطراءُ وأدار رأسَها ولكنّها عبثًا حاولت اصطيادَ نظرة مباشرة من عينيه. نظرة تبني أقواسَ النّصر على صرح الإطراء. «هل تراه يكِنّ لها حبًّا لم يفصح من قبل عنه فيؤكّد ما يروّجه

بعضُهم من إشاعات تدفعه وباستمرار إلى أن يزكّيها لدور البطولة كفتاة مراهقة يحومُ من حولها المعجبون؟».

توشك أن تضع أصابعها العشرة على مرجل أنفاسه وهو يقطّعُ أوصالَ العبارات إلى جملٍ؛ والجملَ إلى مفردات متناثرة كأنّما هي طيرٌ شتَّتَها صقرٌ جارح.

تتوقّع أن يركعَ عند قدميها مُعلنًا حبّه. كانت تخشى دائما أن تأتي مثلُ هذه اللّحظة فتضطرّ مرغمةً أن توقفَه عند حدّه. إنّها لم تحبّه كما لم تفكّر قطّ في الحبّ والزّواج، ورأيها هذا لن يكونَ بدعة؛ فلطالما أعلنت أنّها نذرَت نفسَها لفنّها وجمهورها الحبيب، وهو بالذّات يعرف ذلك ولعلّ هذا ما يخفّفُ عنه الصّدمة.

لا تحبُّ أن تسبّب له حرجًا أو أذى كعهدها مع مَن انهالوا طالبين ودّها. لا تنكرُ أنَّ تكالبَ الرّجال عليها يشيعُ في ثنايا روحها بهجةً ومتعةً لذيذة؛ ولكن حين تبلغ الأمورُ حافّة الجدّ تتسلّح بالفظاظة.

إن أفرغَ لها أحمالَه من الحبّ واللّوعة ستردّه ردّا جميلًا، ولا بأس في أن تضيفه إلى قائمة المعجبين. لن يحظى منها بأكثر من هذا. ليس لديها وقت تضيّعُه في متاهات الحبّ والزّواج . لقد ملأت خشبةُ المسرح حياتَها. يكفيها أنّها تمثّل دائمًا دورَ الفتاة الحلوة المراهقة الّتي يتهافتُ عليها الرّجال فراشًا ملوّنًا.

لقد جرّبت من الحبّ ذاك النّوع المُرتّب. حبٌّ له كاتبٌ ومخرجٌ ومنتج، وهي من تنشرُه على النّاس فنًّا خالصًا بعيدا عن الظنون.

لقد ضمنت دورَ الفتاة المحبوبة لا يزاحمُها عليه أحد، حتّى من يتربّصن بها ويتمنّين لـها الفشل. لا تعترض أيّا منهـن حين تحفظ الدّور الرّئيس حتّى قبل أن يوّزعَ المخرجُ الأدوار. يُرشّحنها ضمنا لتلعب دورا يحلمن به في اليقظة والنّوم.

حتّى هذا الّذي يجلس أمامها مُتعبّدا مُحرجًا يقول للصّحافة عنها: ستظلّ فتاةً مُحبّة محبوبة. لقد ألصقَ بها الكلُّ أوراقَ الشّباب دائمة الخضرة؛ وهم لم يأتوا بالطبع بجديد. مرآتها تشهدُ لها بالفتن، تحدّثها بلغة الرّضا عن تفويتها فرصًا كثيرة تضمنُ لها أن تكون زوجًا وأمّا وربّـة بيت.

تنبّهت إليه وهو لا يكادُ يستقرّ في جلسته. الآن تدلّها هيئتُه أن ليس حبّها ما يشغله. لقد خبرت الرّجال وهم يطلبون ودّها. إحساسُهم بأنّهم أقلُّ منها شأنًا كان يصيبُهم بالحرج ويغسلُهم بالعرق؛ فما الّذي يشغلُ هذا المخـرج بـالضّبط.

لـم تطـق صـبرًا فنهضت مناوِرة. أشار إليها أن تجلسَ وقال بعد جهد جاهد:

- لا بد أنّك اطّلعتِ على نصِّ المسرح الّذي ننوي افتتاح الموسم به؟

هزّت رأسها بمعنى نعم . قالت بثقة مطلقة:

- وحفظتُ دوري كما يجب.

دارت عيناه دورةً كاملة قبل أن تستقرّا على يديه المفتوحتين. فظنّت أنّه لم يجر توزيع الأدوار بعد. استبعدت أن يكون هذا سببَ ما تلحظه عليه من تشتّتٍ وضياع أو حرج، فهذا شيءٌ مفروغ منه، فهي وليس غيرها من ستمثّل دورَ تلك الفتاة، يحومُ حولَها شابٌ يوقعها في شباكه وحين تقبل به زوجًا يرفضها أبوه ثمّ يغيّر رأيَه حين تستدرجُه أمّ الفتاة وتوقعه في حبائلها وهي الأرمل مذ كانت ابنتها تلك في القماط.

ولكن هل دعاها المخرج ليحدّثها عن دور حفظته عن ظهر قلب وألقتهُ على مرآتها فصفقت هذه لها وانتشت؟

قالت كي تنتشله من وهدةِ الصّمت والحرج:

- المسرحيةُ جيّدة وخيرًا فعلتَ إذ تبدأ بها الموسم.

زاغ بعينيه عنها ومسح جبينَه من بوادر عرقٍ يرشحُ به. قال من غير أن يرفع بصره عن الأرض:

- بفضلك ستحظى بما يلزم من تقدير وثناء.

أرجعت ارتباكَه وتشتّته إلى ما يصيب المرء من رهبة كلّما أقدم على أمر جديد قالت بحرارة:

- سأقوم بأكثر من جهدي كيما يُكتب لها النّجاح.

نظر إليها لأوّل مرّة نظرةً مباشرة وغمغم:

- هذا اعتقادي الّذي لا يتزحزحُ بك.

ثمّ نكّس رأسَه وتحشرج صوتُه:

- فليس أقدر منك على القيام بالدّور الّذي اخترته لك.

وردت إلى قلبها الوثّاب إشارةً غامضة أفزعتها. ماذا تراه يعني بالاختيار؟

دورُها واضح وضوحُ الشّمس في سماء بلا غيوم . لقد اختارته كما تختار غيرَه وحفظته وألقته على المرآة فانتشت وصفقت.

تبيّن لها أكثر من أي وقت مضى أنّها عاقلة. راغت من فرص شتّى ضمنت لها أن تكون زوجًا وأمّا وربّة بيت. ماذا يعني بالاختيار؟

تجلّت في عينيها الدّهشةُ والفزع. لعلّ هذا ما دفعه إلى القول بسرعة كأنّما يُلقي عن ظهره حملا ثقيلا:

- لم يستطع غيرُك القيام بدور الأمّ.

تراخَت ملامحُها دفعة واحدة. امتدّت يدُها بلا إرادة إلى وجهها وشعرِها المستعار. تفطّنت إلى أنّها منذ مدّة ليست بالقصيرة ترى

تسلّلَ البياض إلى لون شعرها الأصليّ. تجري حسابًا سريعا لعمرها فتكتشف فجأة أنّها قطعت في فيافيهِ أربعينَ عامًا أو يزيد.

تتدحرج في حلقها حبّةُ حنظل. كيف لم تفطن إلى ذلك من قبل؟ كيف سحبَ الزّمنُ من تحت قدميها بساطَ الشّباب الأخضر فجأة؟ لا تصدّق أنّها كانت تركبُ قطارًا سريعا لم يتوقّف بها لحظةً واحدة فتفتحَ حقائبَها وتلقي بما أصابَه العطب. هل ترى الشّباب طلّقها إلى الأبد؟

نهضت ترزحُ تحتَ أحمال ثقيلة آذتها. غمغمت وهي خارجة:

- سأفكّر بالأمر.

تسمّرت أمام المرآة. هالها أنَّ البياضَ حصدَ حقولا شاسعةً من الرأس. تحاول أن تلقي ما حفظتُه من دورها الأخير، يتناثرُ الكلامُ أشلاءً في زوايا الرّأس. تهشّمه مطرقةُ الزّمن والنّدمُ الزّاحف. تغطي وجهَها بيديها وتجهشُ ببكاء مرّ فيما ظلال المساء تزحفُ منذرةً بقدومِ ليل بارد طويل يخلو من خشبةِ المسرح.

آذار ١٩٧٤م

الفـخّ

قبضَ المختارُ على خرطوم النّارجيلة بقوّة كأنّما يخنقه.

صاح مُبعثرًا نظراتِه البائسةَ على وجه جليسه:

- مِن غير المعقول أن تُبقَرَ أحلامي بقرنيّ ثور.

ثمّ طوّح رأسَه يمينا ويسارًا وأردفَ نادما:

- الحقّ أنّ صاحبَه نصحني حين باعني إيّاه. قال لي: إنّه مجنون وهائج باستمرار، ولكنّني...

قاطعه جليسُه مُغلّفا الشّماتةَ بثوبٍ من الغيرة مُصطنع.

- عشرون بقرة نفقت ليس بالعدد الهيّن.

خبط المختارُ بكفّه على فخذه المدودة وقال متردّدًا في وضع المبسمِ على شفتيه.

- آه... والمؤلمُ أنَّ بقرةً واحده لم تدركها سكّينُ الراعي.

وجد جليسُه الفرصةَ مواتيةً كيما يوجّه إليه ضربةً ماحقة يقضي بها عليه. «يكفيك أن تثيرَ في نفسه الشّكوكَ عن مكانِ «فلاح» الرّاعي وقت الحادثة. ليس هناك غيرُك مَن يعرف أين

كان. لو أنت تكلّمت من قبل لفقدتَ الأملَ بزينب ابنةِ المختار للأبد. هذا إن لم تك الإشاعةُ ريحًا مواتيـةً تدفعُ سفينتك إلى شاطئ الزّواج منها».

ما جُبِلَ عليـه مـن حـذر يدفعُه إلى أن يتريّث. مـال على أذن المختار هامسًا بصوتٍ كالفحيح.

- لابدّ من إنزال العقوبة به. شغّلْه خمسةَ أعوام أخـرى بالسُّخرة.

سحبَ نفسًا عميقًا وقال ورأسُه يتمايل رفضًا:

- تقصد «فلاح»؟ ... لا... لا يا حاج. تذكّر أحلامي الّتي بنيتُها على مسمع منك ليلةَ أمس.

مسحَ على شاربه المُنمنَم يغطّي ابتسامةً ظهرَت ذيولُهـا في غنّة صوته:

- لعلّ الثّور كان يتسمّعُ لنا وهو في الحظيرة.

شرع ينقرُ بالخرطوم على كفّه. قال شاردَ النّظرات:

- مهما يكن من أمر فإنّ خططـي للمستقبل تقوّضت بآلـة جهنميّة تقمَّصت روحَ هذا الثّور.

قـالَ بلهجـةٍ حقنَهـا بالتّشكيك.

- إذن فبائعُ الثّور له نصيبٌ في الجرم.

ألقى نظرةَ ضيق وقال زاجرًا:

- سبقَ وأخبرتك أنّه نصحني وأنا الّذي....

- أنتَ لا لومَ عليك. لا لوم .

زمَّ المختارُ شفتيه. استلقَت في عينيه نظرةُ جريح.

قال بصوت يعصره النّدم:

- لو أنّي على الأقل سمعتُ كلامَ زينب. لقد أبدت لي مخاوفَها.

هبّت على وجهِه لذكرها حفنةُ شوقٍ غسلَت ما كان يعلوه من كدر. سعل ليخفي تهدّجًا يسيلُ من حلقه ويطوّق أوتارَ صوته:

- زينب! زينب فتاةٌ يحفظها الله. فتاةٌ عاقلة بعيدة النّظر.

ثمّ استدرك بعد ما تلقّى من المختار نظرةً مفاجئةً حبَلت بالاستنكار والدّهشة:

- عقلُك الرّاجحُ ينعكسُ عليها بكلّ جلاء .

أعرب عن ارتياحه بسحبةٍ طويلة قرقرَ لها الماء في الخزّان الزّجاجيّ قرقرةً طويلة. مدَّ ساقيه على طولهما وراح يقرقر.

يشعرُ الحاجّ أنّ بإمكانه الآن الولوج إلى غرضِه بلا لفّ أو دوران. «هذه المصيبة بوابةٌ واسعة تعبرُ منها بأحلامك والأمنيات». تحيّرَ كيف يبدأ ولا يزال يذكرُ كيف وضعَه المختارُ قبلَ مدّة في امتحان عسير.

مرارةُ التّجربة لا تزال رابضةً في حلقه حين ردّ طلبَه يدَ زينب بلطفٍ مُصطنع:

- أنتَ تعلمُ يا حاج أنّ كلّ شيء قد تغيّر... فقد صار رأيُ الفتاة هو المهم.

قال باحتجاج منافق:

- بل رأيك. هو رأيك يا مختار... رأيك.

- لا. لا.

وأردف مجاهرا بابتسامة كالمصيدة:

- ومع هذا لن أحرمَك من سماع رأيها.

انفجرت في صدرهِ حنظلةٌ وتململت حزمةُ شوك.

نادى المختارُ الفتاةَ. «لن يجدي الاعتراضُ الآن». أقبلت تميسُ بقامة طالما تآمرت والعينان عليه. ناء قلبُه بحمل ثقيل. بات رهينةَ الترقّب واللّهفة. رأى إليها تمسحُه بنظرة عابرة قبل أن تستقرَّ على أبيها بنظرة استفهام فيترجمُ هذا كمن يلقي نكتة.

- الحاجّ يطلبُ يدَك منّي.

تجاهل غنّة السّخريةِ في صوت المختار، وتعلقت آماله بالخطّ الفاصل ما بين شفتيها المكتنزتين وعينيه الكليلتين.

سمعها تضحكُ بأدبٍ جمّ وهي تبسط يدها أمامَها تتفحصها.

- ماذا عساه يصنعُ بيدي؟

أطلقَ أبوها ضحكةً مجلجلة حتّى غاصت عيناه في ثنايا وجنتيه ثمّ لكزَه متحديًا شامتًا.

- سؤالٌ وجيه. أجبها يا حاجّ.

قبضةُ يدٍ وحشيّة على قلبِه تعصرُه وضحكةُ المختارِ يأخذ بعضُها برقاب بعض إلى أن كفّ أخيرًا عن الضحك وقال بلهجةٍ بدت مُحايدة :

- أخي وصديقي الحاج يطلبك زوجًا له يا زينب يا ابنتي.

رمت عليه نظرة مُهملة كأنّما هو شجرة حور عتيقة.

قالت بصوت ذبحتهُ الدّهشة:

- كيف وأنا أناديه عمّي؟

صادقَ أبوها على رأيها بضحكـة استحسان نفذت إلى قلبِه سكّينًا مثلومة. قال من غير أن يرحمه:

- أنا وأنت نحصي أنفاسنا يا حاج. فلنطلب حسنَ الختام.

وكأنّما أعطى الفتاةَ إشارةً الانطلاق فخرجت كما دخلت شامخةَ الرّأس وئيدةَ الخطى؛ تزفّها قرقرةُ النّارجيلة ورقصُ الماء في الخزّان.

غرق يومها في بحر من الخزي والخذلان. لـم ينـسَ للمختار هذه المواجهة المزرية الخاسرة، ولا محاولتـه عامدًا قصَّ أجنحةِ الأمل والإجهـاز عليه.

«لا شيء يعيبُك. بمقدورك أن تفرشَ البلدةَ دنانيرَ من كلّ حجم ولون؛ أمّا التّجاعيدُ على وجهك فرمادٌ يخفي تحتَه جمراتٍ متوهّجة من الرّغبات، ثمّ إنّ الفتاةَ المتعجرفة ليست كما كنتَ تظنّ. لقد ترصّدتها فألفيتها عابثةً مستهترة.

لطالما رأيتَها بصحبة فَلاح الرّاعي عند البئر. ما الّذي يجبرها على حمل الماء وهنـاك مـن يكفيهـا العنـاء؟ يـوم الحادثة بالذّات رأيتهمـا هنـاك متلاصقين. لم تخنـك عينـاك كمـا توهّمت. اقتربتَ منهما بحذر فرأيتهما متلاصقين. لقـد رأتك زينب كما رأيتَهـا ورأت أنّك رأيتهـا.

لم يشفع لها أنّها غطّت وجهها. لقد عرفتَ أنّها هي. هذا القوام الرّائع ليس لواحدةٍ غيرها، لقد رأيتَهـا ولـن ترفض هذه المرّة

بعدما علِمَت أنّك كشفت سرّها؛ وسيقبل أبوها ما دام مُعلّقا على صنّارة الحاجة والعوز... سيقبل».

قال ضاربا على صدره استعدادًا:

- أقسمتُ بيني وبين نفسي على أن أعوّضك خيرًا من البقرات إن لم تجد من تحمّله الجرم.

وسارع إلى إخراج محفظتِه المتخمة. نثرَ ما فيها أمامَ المختار؛ فأشاحَ هذا بوجهه قائلا بلهجة نحرَت آخر ذرّة من الأمل لديه:

- لا تتعب نفسك يا حاج. ليس لي سلطان على زينب.

أحسَّ وكأنَما يصفعُه على قفاه أمامَ جمهور شامت. يُدمّر ما لديه وبلا رحمة أحلى ساعات التجلّي والصّفاء. تستولي عليه رغبةٌ جامحة بالردّ على هذه الإهانة بأقسى منها وأمرّ.

«ماذا يظنُّ نفسَه هذا الرّجل؟ لقد آن الأوانُ كيما ينفضُ عنه غبارَ العنجهيّة والكِبر؛ كما آن الأوان لتلك الفتاة المغرورة أن تحني رأسَها الشّامخ. ما هي إلّا كلمةٌ واحدةٌ تقولُها فيرتمي هذا الأبُ المخدوع على قدميك؛ فترتمي أنتَ بين أحضان حلمٍ جميل طالما راودك طيفُه في الصّحو والنّوم.

كلمـةٌ واحـدةٌ تقولـهـا فيغدو الحلمُ حقيقةً واقعة. لماذا تخفي سرّك الدّفين؟ لماذا تراوغُ والرّغبـةُ تلحُّ عليك والأيّامُ تنساب من بين أصابعك حباتِ رمل؟ التّأجيلُ والمراوغة منشارٌ يأكلُ أيّامك الباقية فاحزم أمرك.

يكفيك أن تسألَ المختارَ أين كان الرّاعي وأين كانت زينب بينما الثّور ينطـحُ البقرات. لعلّهـا كـانت معـذورةً حيـن رفضَتك من قبل، أمّا وقد هتكتَ سرّها فلن تقـوى على الرّفض. لن تتجرّأ بالنّظر إليك وكأنّك شجرةُ حورٍ عتيقة مهملة. ستتخلّى حتما عن الكثير من غرورها واعتدادها بنفسها. ستلتمُ رجليك قبل يديك كي تقبل بها زوجا» ... مسحَ على ذقنه الحليقة بأصابع مرتعشـة. قال غارسًا بقايا عينيه بعيني المختار في تحدٍّ صارخ:

- نادِها واسألها.

بسطَ كفّيه وقال بامتعاض كأنّما يبصقُ نحوه الكلمات:

- لقد انتهينا من هذا الموّال يا حاج، ففيمَ الإلحاح؟

تنحنحَ مُكسبًا صوتَه هيبةً ليست فيه:

- أنا متأكّد من أنّها ستقبلُ هذه المرّة.

اتّسعت عيناه وتمتمَ بصوت مخنوق:

- تقبل؟ من؟ زينب؟ وبك أنت؟ لماذا؟

حنى رأسَه راسمًا به علامةَ تشكيك كبيرة ثمّ استعاذَ بالله ثلاثًا. هبَّ المختارُ واقفا ويدُه تقبضُ على خرطوم النّارجيلة كأنّما يخنقُه. صاحَ مناديًا وهو يضرب عارضةَ الباب بقبضته:

- زينب. زينب.

جاءت الفتاةُ هرولة. رفعَ الحاج إليها ما تبقّى من وجبة السّنين في عينيه. رآها كعهده بها مُشرعةَ القوام شامخةَ الرّأس فوردَت إلى قلبه لذلك أوّلُ إشارة إنذار قبل أن يشيرَ إليه المختار بإصبع مرتعشة:

- هل تقبلين بهذا زوجًا؟

ظلّت صامتة وعيناها تفترسان وجهه ذا الغضون.

رقصَ لصمتها قلبُه. طال صمتُها فعاد أبوها إلى الصياح:

- هل تقبلين به؟ هذا هو السّؤال. ردّي.

قلّبت يديها قائلة بصوت كفرقعةِ السّياط:

- لقد أبديتُ رأيي في هذه المسألة من قبل.

أطلقَ المختارُ تنهّدة ارتياح طال احتباسُها. أشار إليها أن تذهبَ ثمّ توجّه إلى الحاج يمطرُه بوابلٍ من النّظرات الخارقة. طأطأ هذا

رأسَه جازمًا أنّ الفتاةَ تخاذلَت أمـامَ غضبة أبيها وحسب. تململَ في جلسته. رفع رأسه ببطء وأناة.

تلقّاه المختارُ بنظرة احتقار. تتململُ في صـدره رغبةُ إخباره عن سرّها الدّفيـن فيطفئ هذه النّظرة؛ ويفثأ عروقَ رقبته البارزة غضبًا وغيظا.

«هل يمكن لعينيك أن تتآمرا عليك وتخذلاك، فتكون تلك الّتي رأيتها مع الراعي فتاة أخرى غير زينـب؟ ولكنّـك تـرى عـروق رقبة أبيهـا بوضوح! تراهـا نـافرةً كعرف ديـك عنـد النّزال. إنّـك تراها. لقد رأيتَ زينبَ والرّاعي متلاصقين. لقد كانت هي بالتّأكيد فلماذا ترفضك؟». فكَّ ارتبـاط شفتيه وقبل أن يصدرَ عنه رأى المختـار يوليه ظهرَه؛ فأدرك أنّه بهذه الحركة المفاجئة الرعناء إنّما يطرده. اغترفَ من صدره حفنةً ساخنةً من الزَفرات راح ينفثهـا كتعبيرٍ أخيـر عـن الأسـف لكـون القبطـان المشاكس لم يصغِ إلى نصائحه العتيدة؛ وأصرّ على الإقلاع بطائرة معطوبة. قال:

- لا بأس.

وشرَع يلملمُ الدّنانير مؤمّلًا أن سيأتي لا محالة ذلك اليومُ الّذي يهرع فيه هذا الأب المخدوع فيلثمُ رجليـه قبـل يديه كي يقبلَ بابنته زوجًا له.

كانون أول ١٩٧٣م

أبي تحت البغل

حينَ أستعرضُ شريطَ حياتي أرى السّوادَ غالبًا غلَّابا. وأنّ الأشياء فيها لا تتّخذُ مكانها الصّحيح، ذلك هو شأن الماضي والحاضر، أمّا الأيّام المقبلة فأنا على يقين من أنّها ستحملُ وجعًا آخرَ من نوعٍ آخر _ ربّما_ سيحدّدُها ابني والأحفادُ الّذين لم يأتوا بعد.

ابني تحديدًا لا تنقصه البراءة ولكنَّ سحنتَه معجونةٌ أبدًا بذاك الخوف الآتي من رحم الغيب. تسرعُ به الأيّام إلى الرّجولة والخشونة ملقيًا من خلف ظهره مُكرهًا طفولةً أحاول جهدي أن أصلبَها فيه على جذع زيتونةٍ فتيّة، أو على حائطٍ لن يسقطَ قبل دهور، غير أنّ ذاك الطفل غير الشقي يروغُ منّي كيلا أرى طفولتي الذّاهبة مبكّرًا فيه.

يذكر على وجه التّحديد أنّ أمَّه لم تبتعهُ كما تدّعي من السّوق بل أنّي أغرتُ عليها من خلفِ بابٍ مغلق. يهزُّ الباب صائحًا بلا خجلٍ أو مواربةٍ:

- وهذا هو الباب.

ويذكرُ أنّ والدي_ جدّه_ متجهمٌ على الدّوام بلا سبب، وأنّه حاول خنقَهُ وإزهاقَ روحه الطريّة لمجرد أنّه نظرَ أكثر ممّا يجب وإصبعُه في فمه إلى تفاحةٍ في يد العجوز وهو يأكلُها بقشرها. حاولتُ إقناعه بأنّ جدَّه يحبّه. قلقلَ رأسه مكذبًا وقال بلا مواربة:

- مَن؟ أبوك؟ إنّه لا يحبّك فكيف يحبّني؟

وواضحٌ أنّه لم يكن يشتهي التّفاحة، لايشتهي ما يلمسُه وإنّما كان يتلهّف شوقًا كي يرى كيف سيلتهمُ دودةً كانت تسعى من ثقبٍ أسودَ في القشر الأصفر. ولمّا تبسّمتُ وبعثرتُ شعرَه بفرحٍ صاحَ مبتهجًا:

- أرأيتَ؟ أنت أيضًا لا تحبّه.

لم أكن قطّ أدرك أنّني كتابٌ مفتوحٌ يقلّبُ هذا الصّغير صفحاتي بيسر، أو أنّني أعينُه على تقليب الصّفحات؛ بيد أنّي لم أعترف لو مرّةً بكرهي لأبي. نافحتُ عن هذا الحب بعصبيّة لم أفطن لها إلّا حينَ تركني وهو يطعنني بنظرةٍ لن أنساها.

لو أنّني أعرفُ فيه عادةَ استراق السّمع من خلفِ الأبواب لقلت إنّه لملمَ هذا اليقين من أحاديثي المكرّرة مع أمّه حول أبي نزيل البيت بعد عمر قضاه في العنترة. لا أعرف أنّ عنده تلك العادة فكيف تمترس خلف هذا اليقين؛ وأنا لم أرفع عيني في وجه أبي قطّ؟ كما أنّني أعطيه الدّواءَ بانتظام وأحملُه إلى المرحاض ليقضي حاجته، وأغسله وأنظفه ثمّ أعودُ به إلى السّرير المرتّب النّظيف بفعل يدي زوجتي الّتي لم تُظهِر قطّ أنّها تكرهه.

كيف عرف؟ لم أسأله كما لم يخبرني. يحسمُ المواجهةَ دائما بأن يطبعَ على سحنتي الذّاهلة تلك النّظرة قبل أن يتركني إلى الكلب،

يداعبُه ثمّ يركض به إلى البراري حيث اكتشفتُ لأوّل مرّة، أي نعم. اكتشفتُ نفسي ولكن مع البغل. آه البغل.

أذكرُه وأتذكّره لا كشيءٍ مضى وانقضى بل كعضو مبتور من أعضائي الأثيرة لدي. يعيشُ في دمي. ذكراه تبحرُ في هذا الدم. ذكراهُ هي الشّيءُ الوحيد الّذي لا أخجلُ منه ولا أراعي فيه مشاعرَ أبي المتّقدة حيالَ الآخرين. والبغل بالطّبع من هؤلاء الآخرين. بل إنّه على رأسهم.

كيف لا أذكره دوما؟ كيف لا أنافحُ عنه وقد ساعدني على أن ألتقي بنفسي مرّتين؟ مرّة حين تقاعد أبي من العمل في الحقول وأسلمَ نفسَه للمضْيَف والقهوة حتّى أغار عليه النّقرسُ والشّلل النّصفيّ، ومرّةً حين برَك البغلُ تحت المحراث وألقى عليَّ تلك النّظرة الحزينة يهيبُ بي أن أقتله.

لم يفهم أبي في المرّة الأولى سرَّ أذني الّتي أصابها الصّمم في وجهِ نداءاته المتكرّرة إيّاي، كما لم يفهم في المرّة الثّانية بواعثَ الحزن المتمترس في عيني وسحنتي، ولا سرَّ انقطاعي عن الطّعام. قال وهو ينظّف طقم أسنانه بعد وجبة دسمة قضت فيها ثلاثةُ ديوك نَحبَها.

- البغلُ مات؟ في ستّين داهية.

وقال بعد أن أوصلته المرحاض:

- اشترِ غيره. البغالُ كثيرة. أكثر من الهمّ على القلب.

ولعلّه ظنَّ أنّه يُسرّي عنّي على طريقته في المزاح الثّقيل.

- لأنّك بغل ربّما تحزنُ عليه مثلَ هذا الحزن.

في هذا اليوم، يوم أن مات البغل، حاول أبي أن يخنق ابني. ربّما لهذا لم أتوقّف طويلا عند حكاية الخنق، وربّما كان في خاطري ألّا شيء يستحقّ الحياة بعد ما أرسلَ البغل إليَّ تلك النّظرة الحزينة يهيبُ بي أن أقتلَه ثمّ قضى نحبه أمام عينيّ.

أكثر من عامٍ مضى على تلك الحادثة ولكنَّ ابني لم يذكر البغل ولو مرّة ترشُّ السّلوى على نار الفراق. كلُّ ما يذكره حادثةُ الخنق. يذكرُها بالتّفصيل فأطيّب خاطرَه وأتذكّر كيف كان البغلُ يركضُ مِن أمام المحراث برعونة وفتوّة، كيف كان يحمحمُ بخيلاء وزهو كأنّما يعرفُ قبل غيره مقامَه العتيدَ ومقدارَ قوّته.

بيد أنّ هذه القوّة بدأ عدُّها التّنازليّ باطّراد حتّى شاخت قواه. انتهرتُه فاستدار وألقى عليّ نظرةً يصعب نسيانها قبل أن يهجمَ على المحراث يجرُّه فيما رأسُه يتطامن بالتّدريج؛ وقوائمه تترنّحُ حتّى استحالت إلى خيوط عنكبوت.

تهاوى ولكن قبل أن يلامس صدرُه الأرض. انتفضَ فجأة فخذلته قواه مرّة أخرى فتهالك على الأرضِ المحروثة نصف حراثة يتطايرُ من حول منخريه الغبار.

جثَوْتُ بجانبه أمسِّد رأسَه فألقى عليّ النّظرة الحزينة كـأنّما يقول «لا فائدة، اقتلني أرجوك». أشحتُ بوجهي أداري دمعةً مشاكسةً

ولمَّا التفتُّ إليه وجدتهُ يمدُّ منخريه يعبُّ بهما رائحةَ الأرض الطيّبة قبل أن يسقطَ رأسُه تمامًا وعيناه مغلقتان نصف إغلاق.

بكيته. بكيتُ البغلَ كما لم أبكِ من قبل، أغرقتْ وجهي الدّموع. أغرقتني الدّموع. حتّى اللّحظة الأخيرة ظلَّ يعملُ وأنا أعمل معه. إنّه صديقي. لازمته ولازمني وأنا في ميعةِ الصّبا حين قاعدَ أبي نفسه وأسلمني المحراث ومزّق الكتاب من يدي.

- من اليوم هذا لا كتبَ ولا مدارس ولا رفاق. أنت والبغلُ وحسب.

بكيتُ فَحلَّ النّطاقَ وانهالَ به عليَّ يشبعه من ظهري، من كلّ بوصةٍ في جسدي الغضّ. ثمّ انعطف إلى البغل يشبعُه ضربًا وهو يطلقُ ضحكاتٍ هستيريّة؛ كلّما فرقعَ السّوط على جسدِ البغل الّذي راح يركض يجرُّ المحراث هربًا من السّوط ويجرّني معه، وإذ تفجَّر صراخي توقّف فجأةً وحرَنَ مُتحمّلًا الضّرب بصبرٍ وثباتٍ وعيناه عليَّ تقطران إشفاقًا متحدّيًا صاحبَ السّوط كأنما يقول له:

- اضرب. مهما ضربت فلن أتزحزح.

وراح يمسحُ على وجهي كأنّما يعتذرُ لي عن ركضه بي. وقف أبي ذاهلًا ينزُّ منه الغيظُ وطفقَ يلعنني ويلعنُ البغل.

يترقّقُ بي في لحظةٍ ربّما ودَّ فيها أن أهلك أو أموت. لم يعلن عن غبطة لها أجنحة. قال وهو يأتي على آخر ديك محشو بالصّنوبر والأرز:

- لقد أراحني منه.

حدَّقت إليه للمرّة الأولى وكدت أصرخ في وجهه معلنًا جهرًا أنّي أكرهه بل أمقته. خِلتُ للحظةٍ أنّ رأسَه يميلُ على الوسادة ويُسلّم زمامَه للموت، ثمّ ينتصبُ البغل من فوقه يحرث جسده بشفرة المحراث ثمّ يمضي هرولةً إلى الزّيتونة يتمرّغ في ظلِّها قليلًا؛ ومن ثمّ يمدُّ حافرَه إلى الكتاب يأتيني به ويقول: «هيا تابع القراءة. اقرأ».

تنبّهت على زعيق ابني في الغرفة المجاورة.

- أجل. أكره ذلك العجوز. إنّي أكرهه. لقد حاول خنقي.

فتحتُ عيني على أبي. ورأيته جاحظَ العينين، وسمعتُ ابني يعود يعاود الصّراخ محتدًّا.

- إنّه بغل. ذلك العجوز بغل.

قبضَت يدٌ شرسة على عنقي تضغطها بعنف وحين نظرتُ إلى أبي كرّة أخرى خلتُه يبتسم، بل إنّه حقًّا يبتسم. إنّه يشمتُ بي ولكن هذا في حدّ ذاته لا يهمّ. المهمّ أنّي لم أكن أعرف ولا أتوقّع أنّ ابني سيخذلني إلى هذا الحدّ، ويعتبر البغلَ مسبَّة يلصقُها بمن يكره. اندفعتُ هائجًا وهممتُ بالإطباق على عنقه:

- وماله البغل؟

فرَّ منّي إلى البراري فلحق به الكلبُ ملوّحًا بذيله. هجمَ صمتٌ مفاجئ عليّ. تلفَّتَ إليَّ أبي. ألفيتُ رأسَه مُطلًّا من طاقية الوبَر وقد تدحرجتْ عن الوسادة، يفتحُ منخريه يعبُّ بهما الهواء. «هل يموت؟» مددتُ يدي ألمسه، ألمسُ برودةَ الأموات، تصدّت لي ضحكتُه مجلجلةً ثمّ مدَّ كلتا يديه وقال آمرًا:

- خذني إلى المرحاض..

ثمنُ الدّجاجة

لم يرَ الصّغيرَ أو يشاهده بأمّ عينيه؛ ولكن هذا ما سمعه من أترابِه الصّغار وهم لا شكّ صادقون، وإن كان ما يرونه العجب حين يتسلّلون من بيوتِ المخيم المتهالكة؛ وحين ترشحُهم الأزقّة المتربة إلى هنالك حيثُ التلّة المفروشة بالعشب الأخضر اليانع في بستان أبي الفرج.

يرون العجب، فابنُ أبي الفرج ذو الشّعر الأصفر لا يطالبُهم برسم الدّخول عبر السّياج الشّائك، لا يطالبهم بقروش يعرفُ سلفًا أنّهم لا يملكونها. لا، ولا يضطرّهم مثلَ صاحبِ صندوقِ العجَبِ إلى سرقة الدّقيق الأبيض والبيض من خلف ظهور أهليهم قبل أن يلصقوا عيونهم بالطّاقات الصّغيرة المدهشة بحثًا عن «أبو زيد الهلالي» «والزّير سالم»؛ ليشاهدوا ويسمعوا لمعانَ وصليلَ السّيوف.

ابنُ أبي الفرج لا يسأل عن جيوبهم. لم يسأل قطُّ. بل ويتسامحُ ويسمحُ لهم بالتّحلّق حولَه ولمسِ شعرِه وثيابه؛ وكذا التّفرج على سيّارته الصّغيرة وبأن يدفعوها به.

يسمحُ لهم بأن يطربوا لرنينِ النّقود في جيوبه الكثر. «إنّه لشيء عجَب». والأعجب من هذا كلّه أنّهم لم يروه ولو مرّة واحدة

يضحكُ أو يصخب مثلَهم وهم على ما هم عليه من بؤس وشقاء.

لم يروه يرفع ساقيه في الهواء مسرورًا؛ يقهقهُ طربًا والنِّعمُ _ومنها السّيارة_ طيورٌ تهفو إليه من كلّ حَدَب وصَوب، تراودُه كي يسمحَ لها أن تبني أعشاشَها في عينيه، في قميصه المشجّر، فيهزُّ رأسَه وشعرَه الأصفر بالرّفض. «إنّه لشيءٌ عَجب، إنّه العجبُ العجاب».

نقل الصّغير إلى أمّه ما سمِع فشهقَت ودقّت صدرها:

- ألا يضحك ابنُ أبي الفرج حقّا؟ ألا يفرح؟

أكّد لها ذلك بهزّة من رأسِه المُطرَق:

- لم أره. ولكن هكذا يقول الصّغار، تصوّري.

- وهو ابن أبي الفرج؟

- تصوّري.

قالها بحسرةٍ تطايرت شظاياها إلى قلبِها المُرهف.

أدركتْ معاناتِه فمدّت يدَها تمسحُ على شعره الأكرت.

- هذا يؤكّد ما أقوله لك دائمًا. المالُ ليس كلّ شيء.

نظرَ إليها فجأة معترضا على هذا التّخدير الّذي تحقنه به.

عادت تمسحُ على شعره مؤكّدة.

- أجل، المالُ ليس كلّ شيء.

دفع يدها بفظاظة وقام من فوره إلى القُن.

- أي دجاجة ستبيعين؟

أشارت إلى واحدة منها راقدةً وقد مال رأسُها. قال معترضًا:

- ولكنّها تبدو ميتة. من ذا الّذي سيشتريها؟

وضعت يدها على خدّها وأطلقت زفرة حرّى.

- هي هكذا من يومين. خذها وبعها واشتر دقيقًا وزيتًا.

تلكّأ طويلًا ثمّ انحنى وحملَها فقرقَرت بصوت مكتوم. ألصقَها بصدره. سقطَت على عرفِها الذّابل دمعتان . قال بحزم:

- لن أبيعها .

أطرقت أمّه حزنًا. تعرفُ كم يحبُّ أشياءه الصّغيرةَ وهذي الدّجاجة بالذّات. رعاها مذ تشقَّقَ عنها قشرُ البيضة، وحين وضَعَت أوّل خيرِها حملَ الكرةَ البيضاء الملساء وطار إلى رفاقه يتباهى بها.

ظلّ يتباهى إلى أن فَسدت فلامته لأنّه لم يبعها ولام نفسه. تعلّم من يومها أنَّ البيضَ إذا ما طالَ به الأمدُ يفسد؛ وتعلّم أنّ الدّجاجة كنزٌ مقيم بيد أنّه لـم يـظـن أنّه سيأتي يـوم فيبيعها أو تمـوت.

الموت؟ إنّه يكره الموت. إنّه السّببُ في يتمِـه المبكُر. فتح عينيه على الدّنيا فلم يجد أمامَه من يناديـه «أبي» كما ينادي الصّغار وكما يتناقلون عن ابن أبي الفرج؛ وكيـف يصيح «بابا» حين يأتي هذا بسيارته اللاّمعة؛ وقد رآها أخيرًا تعبـسُ ويكفهرّ لونُهـا حيـن تجـوس في أزقة المخيم ثمّ تضحك وتبرطع حين تعبر البستانَ وتدرجُ على العشب الناعم.

حملَ الدّجاجة بقلب كسير فالجوع لا يرحم، جوعُ أمّـه على الأقل ولكنَّ الرّجل الأعور لم يدفـع أكثر من نصف دينار.

- فقط لأنّك يتيم ولأنّ أمّك أرملة مسكينة.

فرّ من لهجته وعينيه وملامحـه وصـرَّ أصابعَه على الورقة البالية. حين وصـلَ السّياج سمع صراخَ الصّبية على التّلّة الخضراء. توقّف ينظرُ إلى ابن أبي الفرج وكيف يسلّم نفسَه لهم، يدفعون به السّيارة من أسفلِ التّلّـة إلى أن يصلـوا بـه القمّـة؛ فيأمرهم أن يتركوه لتكـرجَ بـه السّيارة. يتراكضون خلفها إلى أن تتوقّف فيحملوهـا بـه أو يدفعوها بلا أمر.

لوى الصّغير رأسه ليمضي. اقتحمته صيحاتُ الصّبية. توقّف وعادَ ينظر. اشتهى أن يقفَ على صدق دعواهم فيرى ابن أبي الفرج عن قرب. «ألا يضحكُ حقّا أو يفرح وهو سلةٌ مزروعةٌ

بالورد؟». اخترق السّياج. سمِعَ تمزّقَ القميصِ البالي أصلا قبل أن يحسَّ بلذعة حادّة في اللّحم.

توقّف يتحسّسُ مكان اللّذعة. اصطبغت أصابعه بالدّم. حامَت قرقرةُ الدّجاجة في مفاصله قبل أن تقطعَ أوداجَها سكينُ الأعور. قبل أن يقول: «بسم الله» ثمّ أردف بعد ذبحها: «هي من نصيب زوجتي الثّانية».

سيصنعُ الأعورُ وليمةً على أنقاض دجاجتك. ولكن لا بأس. ستفرح أمّك بالدّقيق والزّيت؛ ولكن أين الدّقيق والزّيت؟ فتحَ يدَه. ألفى أصابعَه ترتعشُ خاوية. شرعَ يدورُ كما دارت الدّجاجة الذّبيح. اقتحمته صيحاتُ الصّبية. تحرَّك بلا إرادة.

راح يرصدُ ابن أبي الفرج عن كثب إن كان حقّا لا يضحك وهو عروسٌ تزفّه عشراتُ القمصانِ البالية والأقدام الحافية! حاصرَه شعرهُ الأصفر. حاصرته بشرتُه البيضاءُ المُشربة بالحمرة. حاصر فاه. حاصر عينيه علَّ ابتسامتَه ترشحُ منهما فلم يجد. «إنّه لشيء عجب».

انثنى ليخبرَ أمّه بما رأى فتذكّر الدّقيق والزّيت، طفقَ يبحثُ عن الورقة البالية. تحوّل العشبُ إلى إبرٍ تُدمي أصابعَه وتضحك منه، همَّ بالبكاء .

تذكّر قولَ أمّه «البكاء للنّساء». كتمَ نشيجًا يتفجّر في صدره. «أنتَ في نظر أمّك رجلٌ لا ينقصك سوى شاربين فكيف تبكي؟ «عاد يكتمُ نشيجًا يتفجّر في صدره، تنبّه إلى أحدِ الصّبية وهو يطلقُ صيحةَ فرح غامر قبل أن تموتَ الصّيحةُ في عينيه؛ وهما تحدّقان إلى العشب ومن ثمّ ينحني ليلتقطَ الورقة.

دبّت الحياةُ فيه، حياةٌ كتلكَ الّتي تصيبُ أمّه حين تأتي سيّارةُ وكالة الغوث بالمؤن. تحرّك نحو الصّبيّ ليأخذ الورقة. ألفاه يغيبُ بين الصّبية وقد أحاطوا به كأسوار يتخاطفونها منه، يلمسونها، يمرغون وجوههم بها. نسوا ابن أبي الفرج. لم يفطنوا له إلّا بعد أن صاح فيهم.

- ما بالكم؟ تعالوا احملوني وادفعوني .

تذكّر من وجدَ الورقةَ أن ليس غيرُ ابن أبي الفرج من يحمل النّقود. خطَفها مَن خطَفها منه وهرع إلى صاحب الشّعر الأصفر.

- ها هي النّقود الّتي سقطَت منك.

خطفَها منه وغيّبها في جيبه وهو يلطمه.

- أيّها اللّص. انصرف ولا تأتي إلى هنا أبدًا. أبدًا.

ثمّ صاح:

- هيّا احملوني.

قبل أن يتحرّكوا. اخترقهم الصّغير مندفعًا إلى ابن أبي الفرج وقال مُنبّها:

-هذه نقودي.

للتوّ ضحكَ الصّبية وصخبوا من نكتةٍ سمعوها. نظرَ إليهم فردًا فردًا. حملَوه على حبال الضّحك، صاح فيهم:

- إنّها نقودي. بعتُ الدّجاجة. دجاجتي.

كفّوا عن الضّحك فجأةً وراحوا يحدّقون إليه بصمت بدَّدَه ابن أبي الفرج بضحكة صاخبة. «لقد ضحك أخيرا». تذكّر الدّجاجة، تذكّر الزّيت والدّقيق. قال له ضارعًا:

- أمّي تنتظر الدّقيق والزّيت.

سدَّدَ إليه نظرةً حارقة من عينيه الزّرقاوين وأزاحَ خصلةً من شعره الأصفر عن جبينه.

- فلتنتظر وما شأني أنا؟

أمسكَ بابن أبي الفرج من ياقتِه المنشاةِ وزعق:

- إنّها نقودي.

دارت الزّرقةُ في عينيه. مسح بها الصّبية ينذرهُم بـأن سيحرمهم من متعة يوفّرها لهم؛ فانطلقوا يخلّصونه منـه ثـمّ حملوه بالسيّارة وراحوا يتسلّقون به التّلة.

همَّ بـأن يبكي. تذكّر قولَ أمّه «البكاء للنّسـاء». سدَّ منـابعَ الدّموع وتمسمرَ مكانَه يجترُّ القّهر. سمعَ سيّارةً تصـهلُ وهي مقبلَة. التفَـتَ. رأى أبا الفرج .«سينصفني». هرعَ إليـه تحملُـه طـيورُ الرّجاء والأمل.

اعترض السّيارة وتشبّثَ بالنّافذة.

-أنصفني يا أبا الفرج.

سدَّدَ إليـه الرّجل نظـرةً كـاد لـهـا أن يتبعثر. تماسـكَ وسردَ عليه الحكاية ثمّ سأله متفائلا:

- هل ستردّهُ لي؟

- ما هو؟

ردَّ بحرقة:

- ثمن الدّجاجة.

أطلقَ ضحكةً صاخبةً ثمّ صاح في الصّبية آمرًا:

- احملوه عاليًا. احملوه فوق الأكتاف.

حملوه تهمزهُم ضحكاته. «إنّه يضحك». تابعَهُ لبعضِ الوقت وإذ التفتَ إلى أبي الفرج لم يجده. سمع صهيلَ سيّارته يوغلُ في البستان. تذكّر الدّجاجة. تذكّر الدّقيق والزّيت. اندفع إلى الصّبية. أوقفهم . أطاح بذي الشّعر الأصفر. جدّلَ شعرَه بين أصابعه وزعق بصوت مخنوق:

- أين نقودي؟ ثمن الدّجاجة أين؟

دارت عيناه الزّرقاوان بذعر. حاول أن يحرّضَ بهما الصّبية. تحرّكوا فأوقفتهم عينان يطوّقهما الدّمع. «ما رأوه يبكي من قبل». انثنوا عنه وتدافعوا إلى ابن أبي الفرج يخلّصون منه النقودَ قبلَ أن يحطّموا السّيارة؛ ويعيدوا إلى صاحبِهم ثمنَ الدّجاجة؛ ومن ثمّ يتركوا العشبَ الأخضر إلى أن غيَّبتهم الأزقّةُ وغيّبت الصّغير الّذي بات يعرفُ أنْ متى وكيف يضحك ابن أبي الفرج.

شباط ١٩٨٣م

أجراسُ النّهار

عصفَت بي رؤوسٌ في القاعة استدارَت كلُّها نحوي حالَ دخلَتْ موجةٌ عاتيّة طوتني عدّة طيّات وألقت بي داخِلَ عيونٍ مزروعةٍ بالحقد والتّشفي . شهقةُ استهجانٍ من النّسوة اللاّتي حضرن «ياه! إنّه ولد» و تبعه الرّجالُ بهمهماتٍ لها شفراتٌ تمرُّ عليها راحتي وعذابي.

وجوههم بِرَكٌ تحتلّها لهفةٌ آسنة، انتظروا طويلا ليروا كيفَ ألاقي مثلَ هذا المصير. لحظةُ فرحتهم جاءَت وإن تأخّرت عشرةَ أعوام. أحذيةُ الحرّاس من حولي وصلصلةُ القيود في يديّ ورجليّ تفرضُ على القاع صمتًا مزروعًا بالشّوك.

أطوف بعيني في الأرجاء بحثًا عن تلك الفترة الّتي علّمتني أنّ النّهار لا اللّيل صديق. وجوه الحرّاس تحجبُ عنّي الرّؤية. يشيرُ القاضي بمطرقته إليّ:

ـ أهذا هو؟

أسنانُه تمضُغني وعيناه تمطرانني بالسّهام.

ـ دوختَنا عشرةَ أعوام وها أنت ذا تسقط في الفخّ أخيرًا.

تحمِلُ صوتَه ريحٌ سَريَّةٌ بسرعةِ البرق. عيناي تلتصقان بوجه يقطرُ حزنًا وعذابا. ها هي الفتاةُ الّتي لا أعرفُ اسمَها تجلسُ في الصّفّ الأوّل. وجهُها جزيرةٌ خضراءُ تحطُّ عليه طيورٌ مهاجرة قطعت ألف ألفَ ميل.

عيناها قاربا نجاة من حول سفينة على وشك الغرق. هذا الوجهُ وتلك العينان ما رماني طوعًا في القفص. عيناي تطوفان في القاعة، تهبطانِ على امرأة وجهُها حقلٌ عصفت به زوبعةٌ واجتاحَه جراد، نظراتُها إليَّ مشحونةً لؤمًا وشماتة.

- خدعتَ النّاس كلَّهم عشرةَ أعوام، ولمّا حاولت أن تخدعني لقيتَ هذا المصير.

آه... لا تظنّي أنّك انتصرت عليّ. اعلمي أنّني من انتصر. هل تذكرين قبلَ عشرة أعوام كم كنتُ أنا؟ كيف كنتُ أنا؟ طبعا لا تذكرين. سأحاولُ أن أذكّرك بالطّفلِ الّذي كان ملتصقا بجدار يخضّبُه بالدّموع. اقتربتِ أنتِ منه. مسحتِ له شعرَه بحنان. سألته عمّا يبكيه. قال لك بعد إلحاح أنّ أباه أوقع به ضربًا مبرّحًا حين وشَت به زوجُه أنّه سرقَ الخبز. قلتِ له بفرح: وهل سرقت؟ هزّ رأسه بخجل. أخبركِ أن لم يكن هناك طريقٌ آخر وزوجُ الأب قد أخفت عنه كلّ شيء.

طبطبتِ له ظهره وسحبتِ يدَه إلى بيتك، وأطعمته خبزًا ولحمًا وفاكهة. أطعمتِه أضعافَ ربيبتك. قلتِ له: يا للعيب، تسرقُ

الخبز؟ أوَليسَ في البيت أشياءُ غير الخبز؟ أشياءُ أغلى منه وأحسن؟

الخبزُ في عينيه يا سيّدتي كان أغلى من الأشياء كلّها وأحسنَ؛ ولكنّك علمتِه كيفَ يميّزُ ما بين الغالي والرّخيص. مذاقُ شفتيكِ على خدّه ودفءُ صدرِك ما يحدّدُ الثّمن.

كان قبلَ أن يعرفَك نبتةَ صبّار مقطوعةَ الأصل، أمّه قضَت وهو في المهد، وأبوه كان ينامُ على أذنيه وعينيه.

أنتِ وحدَك نصبتِ له مظلّةً واقيةً وألقيتِ إليهِ بطوق النّجاة، جاهدَ كيما يلوّن وجهَك بالفرح. لم يدع في بيت أبيه شيئًا يستحقُّ الذّكر. تحمّل الضّربَ والرّكل والتّهديدَ بالذّبح.

أنتِ من علّمته الصّبر والعناد. قال لأبيه: «اذبحني ولكنّي لم أسرق ولا أسرق». ولكن حين اختفت جواهرُ زوجِه في صدرك صمَّمَ أن يذبحَ ابنَه الوحيد. سارعَ إلى القول ببراءة كما لقّنتِه أنتِ: هناك رجلٌ يتردّدُ على البيت في غيابك.

تحوَّلَ إلى زوجِه على الفورِ وذبحَها فنجا الابنَ وسُجِنَ الأب. لم يرَ أحدهُما الآخر حتّى الآن لذا كافأتِه بأن عزلتِ ربيبتَك في غرفة أخرى وتركتِه يرقدُ في حضنِك عصفورا مبتلَّ الرّيش؛ تُقبّلينه وتمسحين له شعرَه وتحكين له قصصًا مُسليّة عن الأولاد

الشطّار. رغِبَ في أن يكونَ مثلهَم. سرقَ المعلمين والتّلاميذ ورصيد المدرسة.

كانت مفاجأةً أذهلتك فتركتِه يرتاحُ بين ذراعيك فارسًا أجهدتُه الحروب. شرعتِ تتحسّسينه بيدين دبَّ فيهما الرّعاش، تجوبان صدرَه وكلَّ بوصةٍ وأنت تهذين بكلامٍ محمومٍ أيقظَ فيه رغباتٍ كانت نائمة.

ولما بلغَت به الحاجةُ لأن تبتلعيه أقصيتِه عنكِ وتركتِه إلى ربيبتك فبكى وأغرقته الدّموع. تلك اللّيلةُ كانت الحدَّ الفاصلَ ما بين البراءة وعالمٍ آخرَ يستحقُّ الاكتشاف.

سيّدتي، انتظرتُك تلك اللّيلة وبكيتُ حتّى جفّت الدّموع. كرهتُ ربيبتَك حتّى المقت. بتّ أرقبُ اللّحظة الّتي تسمحين لي فيها أن أسافرَ فيك بحقائبي كلّها. أيقنت أن لن تأتي اللّحظة تلكَ بغير ما صفقةٍ كبرى أكبر من رصيد المدرسةِ بكثير.

لست أدري كيف كانت الأمورُ تسيرُ بين يديَّ سهلةً مواتيةَ الرّيح. كلّ ما تطالُه يداي ينامُ بين يديكِ ثمّ يغيبُ في صدرك. هذا الصّدرُ كان مستودعًا من مطّاط أراهُ ينتفخُ ويمتدُّ باطّراد تمامًا كصدرِ ربيبتك؛ فظننتُ أنّك إنّما تودعينَ فيه ما يفيضُ ممّا أسرق .

نشأت بي رغبة في أن أتحسسَ آثارَ براعتي . أن أطمئنَ عليها.

أن أتدفّأَ بها. مددتُ يدي فضربتِني بلطفٍ وغنج «عيب». وضعَت لهجتُك أعصابي على ألف مِغزل. دافعتِني بيدين رخوتين. همستِ لتوقفي اندفاعي «قد ترانا البنت».

أشعلتِ هشيمَ صبري بتحذيرٍ هزيل. وجدتكِ يا سيّدتي مستهترةً ووجدتُني قنبلةً موقوتةً انفجرت قبل الأوان. لم أجِد في صدرك غيرَ كرتين من لحم رخو. علمتِني ألّا أبحثَ إلَا عنهما حتّى بعدما رأيتكِ مصادفةً تغيّبينَ الجواهرَ في خزانة سريّة.

ذعرتِ حين رأيتِني أراكِ ولكنّك لا تدرين أو تدرين أنّي حتّى تلك اللّحظة لم أكن لأرى غيرك. أنسيتِني ما رأيتُ و دفنتِ في صدرك ذنبي.

لم تخجلي حتّى أمام ربيبتك. قلتِ لها ضاحكة :«تعلّمي يا ابنةَ الحرام». تحوّلت عيناي إليها. رأيتُ وجهَها يصطلي بنارٍ غريبةٍ سحريّة؛ أما صدرُها فكان مستودعًا لفاكهة الصّيفِ والشّتاء.

أمسكتِ بأذني، ضغطتِها برفق غامزة:«أنت تشتهيها، إذن ستكون لك». وأشرتِ إلى شرفة مجاورةٍ حُبلى بأصصِ الزّهر تسقيها فتاةٌ شعرُها على كتفيها عناقيدُ عنب.

«هل ترى تلك الفتاة؟» لم أجب. رأيتُها غزالةً ترعى لاهيةً يتربّصُ بها ذئب. «إنّها تسبحُ بالذّهب». لم أر لحظتها غيرَ وجهِهَا بريءَ الملامحِ؛ وغيرَ أنّها غزالةً لاهية يتربصُ بها ذئب.

لم أكن أنا الذّئب. قلّمت تلك الفتاة عن بُعدٍ مخالبي. فرشتُ لها عيني. لم يعجبك شرودي وقولي كلّ ليلةٍ كاذبًا أنّني حاولتُ فمَا استطعت. لم تصدّقي وحين أعيتكِ السّبلَ أطلقتِ عليَّ ربيبتَك لتنفخَ في جثّتي الحياة. كانت أشدَّ غلواءَ وسُعارًا منك.

دكّت حصوني ثمّ تركتني مُعلّقًا بين سماءٍ زرقاءَ وصحراءَ قاحلةٍ. قالت بلسانك: «ليسَ قبلَ أن تكفَّ عن دعواك بالعجز».

ترصَّدتُ بيتَها حتّى خلا ذات ليلة من ساكنيه. اقتحمتُه من الشّرفة ذات الزّهر. كانت الحجرةُ تسبحُ في نورٍ خمريّ حطمَّ نظراتي السّوداء. مزّق عن وجهي القناع.

كانت في سريرها ضيفةً على رهطٍ من الملائكة، تمنيتُ لو أنتزع عيني وأزرعهُما على وجهها وردتين. أنفاسُها الرّتيبةُ فراشاتٌ تحومُ من حولي وتسرق منّي الوعي.

مددتُ يدي ألمسُها برفق. هبّت مرتاعة. الخوفُ في عينيها مناجلُ حصدَتني من الجذور. لم تغرني القلائدُ سيّدتي ولا الجواهر، كان همي أن أحصدَ من عينيها الذّعر، أن أطلِقَ من صدرها صرخةً ماتت. أبعثُها حيّة فيتجمع النّاس ويطلقوا عليّ الرّصاص.

لم تصرخ ففوّتت عليَّ نشرَ وضاعتي على الملأ. لملمَت الحليَّ ومدَّتها نحوي، تراجَعتْ حتّى التصقت بالجدار. الذّهبُ كما رأيته لحظتها حديدٌ صدئ أقام الذّعر في عينيها جنازةً للفرح. غطّت نفسها بالملاءة وحبكَتها من حولها.

خافت على نفسها منّي فأنزلتُ عليك سيّدتي أحقرَ اللّعنات. أنتِ من ألصقتِ على وجهي الفجور. أخفيتُ وجهي وبكيت. أمطرتُ أيّامي الماضية بالدّموع. شعرتُ بيدٍ تنام على رأسي وتربتُ عليه. التفتُّ إليها. وجهُها الوادعُ مظلّة واقيةٌ من هجير عينيك، يديك، لسانك، من غلواء ربيبتك. قلتُ لها: «أرجوك، بلّغي عنّي». رفضَت وألحّت بالرّفض.

خرجتُ من عندها ألعقُ جراحي النّازفة. قلتِ لي ساخرة :«رحتَ تصطاد فاصطادتك». لعنتُك جهرًا وكدتُ أن ألطمك. تضاحكتِ وتمسّحتِ بي حين لم تشائي أن تحرقي سفنك كلّها في معركة خاسرة.

رميتني بربيبتك الّتي فاقتكِ تجربة. لم تنفع التّجربة. عينا تلك الفتاةِ ووجهُها أجراسٌ أيقظَت غفوتي في ليال مرّت حالكة. قالت لي إنَّ في داخلي بذرةً طيّبة لم تعطَ فرصةً للنَّماء.

لطالما حلمتُ بأن أتحوَّل وردةً في شرفتها تتعهّدني بيديها الرّخصتين. لم أر بدًّا من مغادرة بيتك ومعي أحشاء خزانتك

السّريّة. لم يبقَ لي هناك غيَر ما جئت تدّعين أنّي تركتُه في أحشاء ربيبتك. جميلٌ أن تلدغَ العقربُ نفسَها.

لم تجاهري بالسّرقة، لم تجاهري وكلُّ ما امتدّت إليه يدي عاد إلى ذويه. فقد علّمتني هذي الفتاةُ أن أنشرَ داخلي للشّمس وأن أصادقَ النّهار.

شباط ١٩٧٤م

منابعُ الوجع

قبلَ أن تحاصرَه الدّهشـةُ تمامًا لدخولِها القبـو عليـه قالت وهي توليه ظهرَها:

- خذ، وإيّاك أن تقسمَ منه. عدا هذا كلّ حتّى تشبع.

طارد جرمُها فلولَ القبـو الضيّقة، وحيـن اختفـت عـاد بحذرٍ يعانقُ الرّطوبـةَ علـى الجـدران المتآكلـة؛ وحيث الرّغيف النّائمُ أرضًا في المكان الّذي ألقته إليه زوجُ الأب.

اندحرت الدّهشةُ ولابَت في حلقهِ غصّةً قاتلة. يعرفُ الآن لماذا تجشَّمَتْ هذا العناء؛ وهي الّتي حذّرت أبناءها دائمًا من خطر الاقتراب منه أو اللّعبِ معـه. أبـوه زوجُها بعد عودته من العمل في المساء سيغسلُ يديه ورجليه كالعادةِ بالماء السّاخن؛ ثمّ يجثمُ فـوقَ الطّعام ينهشُه فيما شـدقاه طاحونتان هائلتانِ تتناوبانِ الفتكَ بما تيسّر منه على المائدة؛ إلى أن تتولّى آخرُ لقمـةٍ غسلَ الأطباقِ المتهالكة.

عندها وعندها فقط يتنبهُ إليـه. يلقي عليـه نظـرةً تركبُ ريحًا جامحة ويسأل زوجَه وهو يضمُّ ابنته الصّغرى «خلود»:

- هل أكلَ الولد؟

تهزُّ رأسَها أنْ نعم فيتجشّأُ ويسترخي فارسًا أجهده التّشورُ وسدُّ الثّغور. يطوي «خلود» الصّغيرة بين ذراعيه ويندسُّ في ثنايا نوم عميق.

«دائما يسألُ عنكَ بالذّات. لم يسأل ولو مرّة واحدةً عن أبنائه منها. خلود الّتي يحبّها أكثر من عينيه كما يحلو له أن يقولَ لم يسأل مرّةً إن كانت أكلت أو شربت أو نامت. يسألُ وحسب ويأتيهِ الردُّ من زوجه بالإيجاب دائمًا ومنك أحيانًا.

تتطوّعُ بالإجابة من غير أن يسألكَ، فتعجبُ لمَ تصِر على الادّعاء وتزييفِ مشاعرك. تتعجّبُ أكثر من قدرتِك على النّهوض برأسكَ الكبيرةِ على معدةٍ خاوية».

سألَها قبل يومين:

- هل أكل الولد؟

سألها بلهجةٍ يجري من تحتها الشّك. هزّت رأسَها كالعادة. سكتَ قليلا ثمّ سأل:

- حقّا؟

عادت تهزُّ رأسَها فمسحَ على شاربيه ثمّ استحلفها بالله. تلكّأت واحمرَّ وجههَا وما كنتَ تعرفُ حتّى تلكمُ اللّحظة أنَّ الصّدقَ أيضًا درجاتٌ أعلاها المُزنّر بالقَسَم».

عـاد يستحلفُها وعاد وجهها إلى الاحمرار. دارت عيناه دورةً كاملة ثمّ استقرتا عليكَ فـي نظـرةٍ زعزعهـا النّعاسُ أو المراوغة. لسـت تـدري، المهـم أنّه تبـدَّدَ عنـكَ سـريعًا وغابت معه خلود وخالد وخلدون، وبقيتَ أنت بمعدةٍ تعـوي فيها الذّئابُ جائعة.

اللّيلةُ أيضًا ستتكرّرُ المهزلةُ. ستظلّ تلك المـرأةُ بجانب أبيك وتقسم على أنّها حملت إليك بنفسـها رغيفا مُدوّرا كالقمر؛ وأنّهـا حثّتك على الأكل. اللّيلةُ أيضا لن تتخلّى عن الصّمت أو تتخطّى حاجزَ التردّد. لن تقول إنّها حمَلت إليـك رغيفًـا حقًّا بيـدَ أنّه عـاد إلى قواعـده سـالمًا معافى.

عاد إلى أبنائِه منها لتدهنَه بالجبن والقشدة والسّمن. هذه الألوان تحفظُها كما تحفظُ الدّروسَ. إنّها لا تزورُ بطنَك إلّا في المواسم والأعياد حين لا تظلّ دجاجـةً عميـاء مـن غير شبع.

ستقسم تلك المرأةُ اللّيلـةَ أيضـا علـى أنها أطعمتك بيديها. ستسوقُ أغلظ الأيمان فتعلّمك درسًا آخر. ستعلّمك أنَّ الأيمانَ الغليظةَ هي أقوى دعائمِ الكذب».

انتظر والـدَه أكـثـرَ مـن مرّة خارج البيت علّـه يلتقيـه عائدًا من العمل، وإذ يتخيّل وجهَـه المكدودَ وإقبالَه على الطّعام إقبالَ مفترسٍ وقبل أن تبتلعَ ذراعاه «خلود» يتوارى ويُلقي على لسانِه القيود.

يدرك أكثرَ من أيّ وقت مضى أنَّ سؤالَ أبيه عنه يأتي متأخرًا دائمًا. يأتي بعد أن ترفعَ الأطباقُ رايةَ الاستسلام. بعد أن يتجشّأ من التّخمة وتتهاوى حصونُ الأطباق حصنًا بعد حصن.

«لو جاء السّؤالُ المسكينُ قبلَ هذا كلِّه لكانَ جادًّا حقًّا ويهمُّه ألا تنامَ على الطّوى. لا يسألُ عن أبنائه منها، هذا حقّ. ولكنّه لا يرى حاجة لمثل هذا السّؤال ما دامت أمُّهم في البيت، وتُجلسُهم على بابِ القِدر. السّؤال لا يعني غير الإقرارِ بأنّك مُعرّضٌ للمصادرة؛ مع هذا لم يكلّف نفسَه ولو مرّة مشقّة النّظرَ إليك طويلًا. لو فعلَ لتلمّس في عينيك الغائرتين وفي صفرة وجهك سطور العذاب.

كان يفعلُ هذا قبل أن تموتَ أمّك. كان يمرضُ إذا ما مرضتَ ويتركُ نفسَه رهينةَ الفراش معك. كان يفرشُ دموعَه السّخينةَ ويغطيك بها. يتحايل لإقناعكِ بأنّك مريضٌ وأنتَ تكركرُ من العافية؛ وكانت أمّك تدفع حرصَه الزّائد.

- ستفسد ابننَا بهذا الدّلال.

كانت تدافعُ عنك ضدّ الدّلال فماذا يمكنها أن تقول لو أنّها عادت إلى الحياة من جديد ورأتك منهوبًا حتّى العظم؟ قمّة المأساةِ ألّا يعودَ الأمواتُ أو من نعزّهم إلينا. قمّة المأساةِ إن عادت أمّك على أجنحةِ الحُلم وحسب، فهذا لن يبذرَ سهولك المُجدبة. ستزجرك على سكوتك. تهيبُ بك أن ترمي تلكَ المرأةَ بالكذب وأن تصف زوجَها بالنّفاق. ليت الحلمَ يُجدي! إذن لرشت سهولك القاحلة بالعطر.

كانت أمّك تقول:

- كلْ تكبر.

وكان أبوك يدغدغُك بشاربيه.

- سيظلّ صغيرا في نظري وإن تخطّى الخمسين. أريـدُه صغيرا.

نسيَ ذلك سريعًا أو تناساه. لـم يعترض حين أقنعَته زوجتُـه بـأنّك كبير. أطلقَك فـي المدينـة تحمـلُ للنـّاس أشياءَهم بسلّةٍ أكبرَ من الأعوام الّتي تفصلـك عـن أكـبر أبنائه منها «خالد».

خالد هذا سطا على حقّك الفطريّ. أبوك يُكنّى به. حين ماتت أمّك قال النّاس:

- ماتت أمّ محمود.

وقالوا لمن لا يعرفُها :

- زوج «أبو محمود» ماتت.

وقالوا بعد الأربعين:

- سيتزوّج أبو محمود.

كان محمود أيّامَها في عالم الغيب، وكان أبو محمود بشاربين يقف عليهما الصّقر. تناثرَ الشّاربان وطارَ الصّقرُ بعد اللّيلةِ الأولى زاعقًا فوق القبو الّذي كان عليك أن تنامَ فيه تلكَ اللّيلةَ المشهودةَ واللّيالي التّالية.

ربض الأبُ بجانب العروس يبتسم طورًا؛ وطورا يضحك حتّى تظهر ضرسُه العلويّة المُلبّسة بالذّهب. لقد عاينتَ تلك الضّرس منتفخة؛ وشاهدتها بعد يومين من الألم المضني حفرةً حمراءَ تحاصرُها أمّك بخرقةٍ ساخنة؛ قبل أن تنتزعَ مِن قلادتها قطعةً صفراء لامعةً وتدفعَها إليه.

- بعها وعالج ضرسك.

تنازلَت عنها ولم تعرف أنّها سترسمُ دوائرَ الفرح بعد أربعين يوما وحسب من وفاتها. اختطفها الموت. دمعت عيناه حقًّا ولكن تلك الضّرس فتَكَت بكبدِ الذّبيحةِ نيئةٍ قبل أن يتهافتَ عليها المعزّون؛ ليأتوا بعد أربعين يومًا شهودَ العرس فيجثم أبوك على صدر ذبيحةٍ أخرى ينتزع كبدها ويأكلُها نيئة.

طحنها بضرسٍ استعارت ثوبَها من واسطةِ عقدٍ عزيز عليك. عقدِ أمك. لقد ذهبَتْ بلا إشارة إنذار أو وداعٍ كأنّها واحدةٌ من النّجوم الكُثر؛ تُحدّق فيها طويلا، تلمعُ للحظاتٍ ثمّ تهتزّ كأنّما هي في بركة راكدةٍ ألقي فيها حجر، تهتزّ ثمّ تذوي وتذوب.

لا تعرف إن كانت أمّك ما زالت في تلك الحفرة حيث دمعَت عينا أبيك؛ أم إنّها صعدَت إلى السّماء وركبت نجمةً من تلكم النّجوم

اللاّمعة. تتساقطُ باطّراد في عينيك وتنفثُ على وجنتيك دموعًا ساخنةً لا يراها أبوك حقّا ولكنّـه سيرى الشّحوبَ لو أمعن النّظر. كيف له أن يفعلَ وزوجُه هناك؟ وأبناؤه منها هناك؟

كنت تُمنّي النّفسَ بـأن يكتشـفَ هذه اللّعبة الّتي تمارسُها زوجـُه عـن عمـد؛ ولكنّك اكتشفت أنّه متورطٌ حتّى العظمِ في لُعبة أدهـى وأمـر. كـان عليك أن تفهمَ منذ رأيتَه يجتثّ شاربيه».

رأى الرّغيف مطروحًـا حيـث ألقتـه. مـدَّ إليـهِ يـدًا مرتعشة. لسعته السّخونة. «قطعًا ستقسم تلك المرأةُ على أنّها أعطتك رغيفًا استلّته لتوّها من الفرن. لا بد أنّها تُجلِسُ أبناءها الآن على فُوّهة القدر؛ تهيبُ بهم أن يأكلوا حتّى يكبروا.... حقّـا مـن تـكـن أمـُه فـي البيـت يـأكل الخـبزَ والزّيت؛ الخـبزَ سـاخنًا مـن الفـرن والزّيـتَ نقيّـا مـِن المَعصرة».

حرنَت في حلقهِ غصّة بحجمِ الرّغيف. همَّ أن يبكي. رفع عينيه إلى السّقف. طالعهُ وجهُ أمّه هناك. حذّرته من البكاء والصّمت. طوّح بالرّغيف من باب القبو واندفع إلى حيثُ زوج أبيه وكلّه تصميمٌ بأن سيجثمُ على باب القِدر ومن ثمّ ينطلقُ ليلتقي ذاك الأب، يخـبرُه بأنّـه ضـاق ذرعًا بحبّه الزّائف، وأنّه لن يرى وجهَه بعد الآن.

تشرين ثان ١٩٨١

الرّهائن

لم يجد وسيلةً أخرى غير هذه يفلتُ بها من أنياب الحاجِة والحصار واللّعنات الّتي تقف له بالمرصاد؛ مذ أن تخلّت ساقاه عن دورهما الطّبيعيّ في حمله من البيت إلى المصنع، مذ أن قال له صاحب المصنع:

- مكانك البيت.

وحملت عيناه السّياطَ تجلدانه بها واشهرتا الحقدَ الدّفين.

كادت تطفرُ من عينيه الدّموع لولا أنّ الشّللَ لم يهزم كرامةً يعتزُّ بها أمامَ زوجه والأبناء والجيران . تذكّر لحظتَها عرقًا صبّه جداولَ ساخنةً في مفاصلِ الآلات، تذكّر تعبًا يقصم الظّهر؛ وذَكَّرَ ذلك الرّجل الأصلعَ بها وبجهوده المضنية في رفع سويّة الإنتاج.

ذكّره بأعوام العذاب فلم يترجّل الحقدُ من عينيه:

- مكانُك البيت.

طاردَه الصّوتُ الغليظُ عبر البوابة فركضَت به العربةُ مدفوعةً بفورةِ الدّماء ولعنة الكوارثِ النّازلةِ جبالًا راسية، لذا لم يجد وسيلةً أخرى غير هذه وكان لا بدّ من اتّخاذِ قرارٍ حاسمٍ لا يقبل النّقض.

اتّخذ قراره هذا في ساعاتِ اللّيل الأخير حين نامت الزّوجةُ والأبناء. قرأ الإعلانَ مرَّات عديدةً حتّى باتَ يحفظُه عن ظهر قلب. وجدَ فيه فرصته الأخيرةَ إن كان حقًّا يريدُ أن يُخرسَ الجوعَ وأن يُعيدَ العقلَ إلى أبنائه؛ بعدما ذهبَت به روائحُ الأطعمةِ تتصاعدُ من نوافذِ الجيران.

«ليسَ من سبيلٍ آخرَ أو تجلسُ بالعربةِ على قارعةِ الطّريق تمدُّ يديك للنّاس. النّاس الّذين أوصدوا في وجهك كلَّ بابٍ مفتوح؛ كلّ بابٍ قصدته وقال لك صاحبُه كما قال ذاكَ الرّجلُ الأصلع:

- ليس هذا مأوى للعجزة والمُقعدين.

النّاس الآخرون معهم حقٌّ ربّما؛ فالرّجل الّذي أفنيتَ شبَابك في خدمته طردَك كما يطردُ كلبًا ضالًّا اندسَ بين كلابهِ المُدلَّلَة. يعرفُ يقينا أنّ الشّللَ كان نتيجةً حتميّة لسقوطِ الآلةِ الجديدة عليك؛ وأنتَ تحاولُ تركيبها.

يعرفُ هذا بالتّحديقِ في الوقائع ومِن تقريرِ الطّبيب قبل أن يلقيه تحت قدميه.

- هذا سخف؛ فما علاقةُ آلةٍ سقَطت على الظّهر بالسّاقين؟

ربّما كنت ستشفى لو لم يهزّ ذاك الرّجل شجرةَ الأمل بقبضةِ إعصار.

لقد قال لك الطّبيب:

- الحياةُ ساعاتٌ من الصّبر والمثابرة والاحتمال فاصبر وليكن عندك أمل.

بيدَ أنّ ذلك الرّجل الأصلعَ أغارَ على شمعة الأمل، أطفأها بنفخةٍ واحدةٍ وألقاكَ مِن ثمَّ في عتمةِ البيتِ جثّة هامدة. حتّى نصفك العلويّ الّذي راهنتَ عليه دبَّ هو الآخر فيه النّعاسُ وبات يقنعُك بأنَّ الحياةَ تنتهي عند أوّل بادرةٍ للحقد ونكران الجميل».

حاول منذ البَدء أن يسحبَ زوجه لتقفَ معه في خندقٍ واحد. تلقّت أمرَ الطّرد بصمت قبل أن تثور على وجهها زوابعُ التّقريع:

- هكذا أنت دائمًا، تحشرُ نفسَك فيما لا يخصّك أويعنيك. ليركِّب الآلاتِ غيرُك. لماذا أنت بالذّات؟ ها؟ لماذا؟

وشرعت تبكي بحرقة كما لم تبكِ من قبل. دفعَه نشيجُها ودموعها إلى التّفكير ليلَ نهار حتّى توصّل إلى قراره هذا. ودَّ لو يصرخُ في هجعةِ اللّيل ألّا وسيلةٌ أخرى أمامَه غير هذه؛ بيد أنّه لم يشأ أن تنهارَ زوجُه أكثر.

كان يرغبُ دائمًا أن يلتقيها عند مشارف الأفق حين يكبر الأولاد ويتوزّعون في شعاب الحياة؛ بعدما يغدو صراخُهم غناءً ورقصًا على أطلال الفقر والحاجة وحصادِ العيش يوما بيوم.

كان دائمًا يقول:

- ستكون أيّامهم أكثرَ صعوبة وقسوة ولعنات؛ ولكن علينا أن نُحبّبَ إليهم الحياة، أن نذلّلَ الحياة، أن نروّض الحياةَ حتّى تكون صهوتُها طيّعة للرّكوب.

كانت زوجُه تشايعُه، تزرعُ حديقةَ الأحلام هذه بالورود وتدعو له بوافر الصّحة وطول العمر، وحين جاءت سقطته القاتلة عنّفته ثمّ قالت بسخط:

- ابق أنتَ في البيت وسأشتغل أنا، أنا من ستشتغل.

لم يكن في صوتِها تلك الحماسُة الّتي تجعلُ من الزّواجِ شركةً مساهمة بين اثنين. اشتمَّ في صوتها حملةً خفيّة مسعورةً تدلُّ على أنّه كبَا وما عادَ في مقدوره النّهوضِ فيبلغ خطّ النّهاية.

- سأشتغل أنا. أنا من ستشتغل.

يزعقُ رافضًا، يدري تمامًا ما الّذي يمكنُ لامرأةٍ أميّة أن تعمَله. امرأة لم تدخل مدرسةً ولا ينقصُها الجمالُ تخرجُ إلى الشّارع وتعملُ خادمةً في البيوتِ على أحسن الأحوال.

يرسلُ ذهنَه إلى شعاب المستقبل. يراها ملغومةً بما يهونُ أمامَه الموت. يغمرُ وجهَه بيديه فتتحوّل الدّنيا إلى موقدٍ كبير يتطايرُ منه الشّررُ فيحرق بقايا الصّبروالثّبات، يصرخ:

- لا.

صرخَ بها أكثر من مرّة فكـان عليه أن يجدَ البدائلَ ليكسبَ صوتَ عينيها المزروعتين بالخيبة.

استنفدَ السُّبلَ الممكنة كلّها، تذلّـل بمـا فيـه الكفايـة لصاحبِ المصنع وأصحابِ المصالح الأخرى. ألفـى العواطفَ جاريةً سوداءَ ساقَها حظّها النّحسُ إلى عـرس أو مهرجانٍ سيسوّدُ لونَها أكثر، وستهشمُ المرايا كلّها لحظـةَ عودتِها إلى البيت.

قبل الطّرد بلحظةٍ كان موقنا أنّ الدّنيا أوسع بكثير من باب المصنع، أكبر مـن رأس ذلك الرّجل النّاكر للجميـل. سرقَه في عنفوان الشّبابِ ونحّاه عن الطّريق لـدى أوّل كبوة.

- ابحثْ لكَ عن مكانٍ آخر بعيد عن مصنعي.

ثمّ أردفَ بلؤم دفين:

- إن وجدت فأنا أوّل المهنئين.

اكتشفَ بعد شهور من البحث المضني أنّ التّحـدّي لـم يكن مجرد نبوءة يطلقها الرّجل. علّمه البحثُ وسؤالُ النّاس أنّ الحياةَ أكبرُ منها بوابةُ المصنع. أكبرُ بكثير، وأنّها في أحيان كثيرة تكـونُ أضيـق من سمّ الخياط. العيـونُ دائمًا ألفاهـا مُشـرّعة السيّاط. تهاجمـه بـدءًا بساقيه. حوّلتـه سـاعاتُ البحث إلـى جـذع لشجرة

يابسة تساقطت ثمارُها الشّهيّة وانسكبَ عصيرُها إلى كرشِ صاحب المصنع، إلى كلابه المدلّلة.

بات على قناعة أكثر بأنّ مكانَه البيت. والبيتُ فيه زوجةٌ تضعُه أمامَ خيار واحدٍ صعب؛ وفي البيت أبناءٌ يصلبونه على شاهد قبر.

- مكانك هنا.

أبحرَ في زورق الماضي. ارتطمَ بصخرةِ الحاضر، وحين حاول أن ينفذَ من بوَابة المستقبلِ ألفاها موصدةً؛ لذا لم يجد من وسيلةٍ أخرى غير ما قرَّ قرارَه عليه، أو يجلس على قارعة الطّريق ليتصدّق عليه من أغرق حياتَه بالملح .

في أحيان كثيرة يثورُ في نفسِه هاجسٌ يغريه بأن يرفعَ عن وجهِ الحياةِ برقعَ العهر. يقنعُ نفسَه بأن لم يعد للكرامة والشّرف تلك المعاني البرّاقة؛ تلك الّتي تغريه بأن يتعبّأ بالرّفضِ والمجابهةِ حتّى وان كان جالسًا على خازوق.

يثورُ هذا في نفسه ولكن ينحدرُ بالعربة إلى الطّريق العام. يقفُ محدّقا في المارّة، يرى صغارَه مثقلي الرّؤوس خجلًا وخزيًا وموتًا.

«أقرانهم!! ماذا سيقولُ لهم أقرانهم بالمدرسة؟ كيف سيجابهون الحياةَ من بعد؟ ماذا ستقول زوجه؟ وماذا سيقول الأبناءُ حيث يتحوّلون إلى آلةٍ صمّاءَ تمدُّ ذراعيها للنّاس بلا استثناء؟».

ما يعرفه يقينا أنّ البيتَ تحوّل بعد الطّرد إلى عربةٍ معطوبة؛ وأنّ زوجَـه تحـاولُ بعرضها البائسِ أن تعيدَ إليها الحياة. كلّما فكّر بأنّه على وشك الرّضوخ لعرضِها تتجمّع في مآقيه الدّموع فيرى طريقَ الاستجداء أجدى بمـرّات مـن خـروج امرأة إلـى الشّارع؛ امرأةٍ لم تتدرّب كفاية على أفانين الدّفاع عن كلّ ما هو جميل.

قرأ الإعلانَ لآخر مرّة، ثمّ اتّخذ سمتَه إلى المشفى. العنوان في غايـةِ الـبروز والوضـوح في الصّحيفة؛ وكذا النّداء الحار إلى المواطنين الصّالحين كي يبادروا إلى تقديـمِ العـون مـن أجسادهم؛ إلـى إخوانهـم مـمّـن أقعدتهـم الأمراضُ المزمنة القاتلةُ عن مواصلة الحياة كمـا يجـب. أقعدتهم عن خدمةِ الوطـن.

سقطَت عيناه على كلمـة «تبرّع». طوى الصّحيفة ساخرًا أو شـامتًا. «تبرّع». سخِرَ منها أمام الطّبيب المسؤول الّذي لـم يفهمـه أو لـم يُـرد أن يفهم، لذا أهالَ عليه المديح والثّناء:

- بوركـت و بـوركَ أمثالُك من المواطنيـن الصّـالحين؛ فالتبرّع واجبٌ وطنيّ؟

حـدّق إليـه طـويـلا، استعار عيني صاحب المصنع، غرسهما فيه وصاح:

- لست هنا كي أتبرّع.

نظرَ إليه الطّبيب غيرَ مُصدّق ثمّ ضحك ممّا حسبه نكتة، فعاد إلى الصّياح:

- لم آتِ متبرعًا. جئتُ بائعًا.

- بائع؟

- أجل بائع. خذوا إحدى كليتي، خذوا إحدى عينيي، خذوني كلّي. ليس مهمّا. المهم أن تدفعوا لي فورًا؛ وما تبقّى من هذا الجسد الهالك _إن بقي_ أرهنُه لديكم إلى ما بعد الممات.

رماه الطّبيب بالخيانة للوطن وبالجنون، وقبل أن يشيرَ إلى باب الخروج تدافعَت جمهرةٌ من النّاس، اعترضوه وسألوه إن كان يعني حقًّا ما يقول، وإذ كرّرَ عليهم ما قاله للطّبيب صارت الطّريق الّتي قطعها إلى المشفى سجّادةً تطويها سيّارةٌ فارهةٌ تتبعها سيّاراتٌ تحمل إلى زوجه وأبنائه لحمًاً وخضارًا وفاكهةً لم تأتِ مواسمُها بَعد.

كانون أول ١٩٨١م

جَنينُ الفرح

أوّل ما أحسَّ به حبالٌ غليظةٌ تلتفُّ مِن حوله وتصعدُ به من قعرِ بئر مظلمة باردة. بدأت تغسلُه حزمُ الضّوء. تسلَّلَ إليه شعورٌ بالدّفءِ لذيذ. تراخَت عنه الحبالُ وانزاحَ ما يجثمُ على صدره من أثقالٍ هائلة. حاولَ أن يفتح عينيهِ فلم يقوَ على فكّ الارتباط ما بين رموشهما المُطبقة.

تساءلَ عمَّا رماه في خليّة كهذه لا يكفُّ نحلُها عن الطّنين. يرى من خلال الرّموشِ أنّه داخلَ خيمةٍ بيضاء. تصلُه أصواتٌ آدميّة تزيدُ من اندهاشه:

- مسكين...لا أهلَ له ولا أقارب

- لم يترك غيرَ هذا الحمار.

- من سيجلبُ لنا من بعده الماء؟

- كنتُ أوّل مَن رآه ملقى على قارعة الطّريق.

- العجيبُ أنّ حمارَه لم يتركه أو يفارقَه لحظة واحدةً بعد موته.

- هل تراه ماتَ من البرد؟

- مَن يدري؟ ربّما من التّعب.

-أو من الجوع. علمُه عند الله.

- كانَ لا يعرفُ من الدّنيا غيرَ الطّريق الواصل ما بين البلدة والنّبع.

استطاع أن يُصغي إلى تلك الأصوات وأن يُميّزَها ويعرفَ أصحابَها. ارتسمَت وجوهُهم في رأسه فحدَّدَ موضعَ هذا الرّأس. حاول أن يرفعَه فظلَّ ثقيلًا تنامُ فيه أطنانٌ من الرّصاص. صكَّ سمعَه صوتٌ ملتاع عرفَ فيه حمارَه. نزّت فرحةٌ طفوليةٌ مِن مكانٍ ما مِن جسده.

عادت الأصواتُ تختلطُ من حوله خليّة نحل:

- هذا سرّ اختفائه من يومين إذن.

- لن يغفر الله لنا لأنّنا لم نسأل عنه .

- أرأيتم كيفَ كان وجهُه هادئَ السّمات؛ دافئًا كأنّه حيٌّ لم يمت؟

- لم يؤذِ في حياته أحدًا قطّ.

- نحن مَن كنّا نؤذي مشاعرَه ونسخرُ منه.

- لن أغفر لنفسي كلّما تذكرت أنّي كنتُ أنعتُه كلّما رأيته بابن كلب.

نهقَ الحمارُ بلوعـة. يندفُع مـن صـدرِه الفرح. يفتحُ عينيه. يرى الخيمة كفنًا أبيض، يجتاحُه الرّعـبُ للحظـة. يهمُّ بالنّهوض. تربتُ عليه أصواتٌ يأكلها النّدم. يستمرئُ أن يكونَ محـورَ الحديثِ وقد ظـلَّ منسيًّا دهرًا بأكملِـه يحملُ لأهل البلدة الماءَ على ظهره والحمار.

«لطالما سخروا منكَ وأشبعوك كلامًا جارحا. لم يعرفوا قيمتك إلّا الآن. يتذاكرون مناقبَك وسببَ موتك، يمرّون عن التّعب المضني والفقر».

يتذكّر أنّه في لحظةٍ دارت به الأرضُ دورةً كاملة وصارت الجبال كالمغزلِ تلفّه عليهـا قبـل أن تُطبِقَ عليه فينتفخ رغوةً ويتلاشى. يتحسّسُ جلدَه. يعجبُه ملمسُـه النّاعمُ وقد خـبِرَه خشـنًا بتراكمِ الأوساخ عليه.

«لا بدّ أنّهم غسّلوك بالماء والصّابون كما كنتَ تشتهي دائما أن تفعل». ينـداحُ فـي صـدره السّرور. «وجدتَ أخيرًا مـن يعتنـي بـك ويصـبُّ عليـك المـاء. أنـتَ الّذي قطعـت دهرًا تحمـلُ المـاءَ لهؤلاء على ظهـرك والحمار؛ لم تجد الوقتَ كي تشربَ حتّى ترتوي، أو تستحم حتّى تنظف... لطالما سخروا منكَ وصفعوك على قفاك».

سمعَ أصواتَ التّهليل والتّكبير وأحسَّ بـأيادٍ تحملُـه على الأعناق.

«ما أعذب أن تجدَ نفسَك محمولًا من أُناسٍ أحنوا ظهرَك. دعهم يحملونك ولو مرّة واحدةً حتّى وإن كانوا في طريقهم إلى القبر».

سرَّه أنَّ الطّريق حبلٌ من مَسد وأصواتُ التّهليل والتّكبير تزفّه. تحلّق بهِ على قممٍ سامقة. يسمعهم يقولون:

- نحن لا نحملُ النّعش، هو الّذي يحملنا.

- لا عجب فهو صاحبُ كرامات.

يهمّ أن يضحكَ. يزدحمُ صدرُه بالهواء. تهاجمُه موجةٌ من السّعال. يتوقّفون صائحين:

- يا الله. إنّه حيّ، حيّ.

يضعونَه أرضا. يسحبون عن وجهه الغطاء، يستقبلهُم بعينين مفتوحتين وثغرٍ باسم. ينهالون عليه ضربًا وركلًا. يضعون على ظهره النّعش، يسوقونه أمامَهم يلعنونه ويضربونه فيما الحمارُ من خلفهم يرقصُ بمرح.

تشرين أول ١٩٧٧م.

حدودُ الأشياء

لم أكن أدري على وجهِ الدّقّة إن كانَ عليّ أن أفخرَ بالنّظر إلى وجهي المُنعكسِ على زجاج الواجهة الورديّ؛ أم أغمضَ عيني تاركًا الحزنَ يتشكّلُ داخلي يُطهّر ساعاتِ القلق . كلّما توصّلتُ إلى قرارٍ بالهرب أنشبَ سؤالٌ في رأسي مخالبَه.

- ألم تتحمّل مشاقَ السّفر من أجل هذا؟ وهذا فحسب؟

نظرتُ إلى الفتاةِ المُمدّة على السّرير. كانت ساقاها المُنفرجتان تدعوانني بإلحاح وضجر، لا تفتأُ تنظر إلى ساعتها فيما أنا جامدُ الملامح كتمثال مِن شمع.

لا شيءٌ فيّ يتحرّكُ غيرُ زوابعَ تجوبُني بقسوة ورعونة. لعلّها تعجب من هذا البرود، ومن شاب أكلها بعينيه قبل قليل! هي لا تعلمُ بالتّأكيد أنّني رأيتُ فيها تلك الفتاة الغادرة؛ الّتي أوصلتني النّبعَ لأشربَ ثمّ صفعتني على قفاي كتيسٍ هَرِم.

لها الوجه ذاتُه. الملامحُ ذاتُها. والفمُ الّذي ظللتُ أرجِئُ تقبيلَه إلى ليلة زفافِ غَزَلْنَا معًا ثوبَها البهيج.

اخترتُها من بين العشرات اللاّتي يغصّ بهنَّ المكان. يعرضنَ الصّدورَ والأرداف، وكذا يفتعلنَ الشّجاراتِ ليسيلَ من الجياعِ

لعابُ الشّهوة. افترستها بعيني. بالتّحديد كنتُ أفترسُ وجهها. دخلتُ منتقمًا لحبٍّ عذريّ تفتّحت أزرارُه عن شوكٍ مُدبّب مسموم.

انتقيتُ هذه بالذّات كي أحرثَ بها ذكرى تلك الّتي خدعتني وغدرت بي وصفعتني على قفاي. لهذا ارتحلت. ظللتُ ليلةً كاملةً طائرًا فُرِضَت عليه الهجرةُ من غير أن يكونَ واحدًا من الطّيور المهاجرة طلبًا للدّفء والأمان.

أروغُ من سكّين الغربة وهي تحاولُ الغوصَ إلى داخلي ترقصُ لعزفِ الحنين هناك. تجعلُني أندمُ على أيّام عشتُها على أملِ أن أهجرَ الوطنَ وأرتّب لي شيئًا جديدًا من نوعٍ جديد. كان عليّ كي أنفصلَ من جاذبيّة الحنين المطبق أن أفتحَ بوّابة رأسي لتعبرَ منها الأحلامُ أرتالًا حتّى أتخدّر.

ساعاتٌ طويلةٌ قضيتُها جالسًا على عرش من ذهب وتحتَ قدمي فتاة ترتعدُ ضارعةً ألّا أحكمَ عليها بقطع الرّأس، ولكن يدي ترسمُ حركةً خفيفةً متكبّرة؛ يلمعُ على إثرِها سيفٌ صقيل.

يتدحرجُ الرّأسُ إلى هرمٍ كبيرٍ نَهمٍ لا يشبع. كلّ شيءٍ يجري هيّنًا رخيًّا بلا صرخة احتجاج واحدة. حين أكونُ في الفِراش فأنا الآمرُ النّاهي. أنا سلطان الزّمان.

كانت هي بالذّات سببًا في تحوّل قلبي المُرهف إلى صخرٍ أصمّ. تظلُّ ترجوني أن أجزَّ رأسَها خَلاصًا من أبيها مُنتفخِ الأوداج، مدلوقِ الكرش.

عرَفَ قدري أخيرا. تنازلَ عن غروره فجـأةً زاحفًا على يديه ورجليـه. قبّـل قدمي وأعلنَ بصوتٍ مذبوح ألّا فوارقَ في الحبّ، وأنّه لهذا يَهَبني ابنته _حبيبتي_ زوجًا وخادمًا مطيعةَ أبدَ الدّهر.

أغلقتُ سمعي في وجهِ صوته البغيض. تركتُ ابنتَه مُعلّقة من شعرها الفاحمِ في حجرةٍ معزولةٍ من القصر؛ وعلى بابِها زبانيةٌ شدادٌ غلاظٌ لا يعرفون الرّحمة.

لم أنس عينيه وهما تتسلّقانني باحتقار وهو يشير إليّ بإصبعه أن أذهب. ربّما بالحركة ذاتها يطردُ ذبابةً حطّت على أنفـه الضّخم. بل لم أر لحظتها في منزلِه ذبابةً غيري.

رائحـةُ المـال تـنزّ من كلّ شبرٍ فيه. رأسي الّذي كنتُ حتّى تلك اللّحظة أفاخر به وأعتزّ غطَس بين كتفيّ. فَتّشتُ عنه فلم أعثر على أثرٍ له إلّا في الشّارع الّذي مـا عـاد عريضًـا ساجيًا كحالـه حيـن كنـتُ أحـملُ شـوقي ولهفتي وحبّي.

توهّمـت أن حبيبتـي ستهرعُ إليّ. تشايعُني. تقفُ إلى جانبي، تكونُ بيضـة القبّان ترجِحُ كفَّةَ ثيـابي الرّثّـة وفقـري المُدقـع؛ ونسـبي المغمور وحارتي المنسيّة. لم تفعل حبيبتي. ظلّـت طـولَ الوقت تشخذُ على سحنتي نصلَ الخجـل مـن أنّها عرفتني ذات يـوم .

لـو كـان مـكـاني جبلٌ لتهـاوى وتفتَّـتَ كـسـيرَ الخاطر.

سألها بجفوةٍ واحتقار:

- أهذا هو؟!

كنتُ على يقينٍ مِن أن رأسها الجميلَ سيومئُ بالزّهو. رأسها الّذي عجنته بطين حارتنا الأسمر خلعَته عنها وتطامنت برأسِها القديم الّذي كان قبل أن نتعارف، قبل أن تقول لي أنّها تخجلُ ممّا هي فيه مِن وهمٍ باطل.

قهقه أبوها وأشار إلى بإصبعه أن اذهب. سدَّدَت هي إليَّ من عينيها نظرةً تلعنُ فقري وحارتي وحبَّنَا مقطوعَ الذّيل. طوّح بي رأسُها القديمُ إلى الشّارع وحيدًا أعزل حتّى من بارقةِ أمل.

تدحرج رأسي أمامي. استقرّ عند قدمي يبكي وينوح. تلك الغادرة نصَّبتُها زمنًا على عرش قلبي، علّمتها كيف تُخبّئ كنوزَها إلى ليلةٍ مشهودة كنتُ على يقين من أنّها حافلةٌ بكلِّ هذهِ الكنوز.

ثراؤها الفاحش داسته خيلُ الحبّ فغدا قزمًا أصغر من قُلامة ظفر. كلّ شيء تغيّر من نظرة واحدة صوّبها إليها أبوها:

- أهذا هو؟

عادت سريعا إلى صَدَفةٍ لامعة كنتُ قد أخرجتُها منها؛ وعلّمتها أنّ الفقراء والمُعدَمين أساتذةُ الحبّ العذري الأنيق. نظراتُها إليّ أمام أبيها قالت إنّها سمكةٌ ملوّنة كانت على وشك السّقوط في مستنقع موحل تستوطنُه الضّفادع.

كيف لم أفهم من قبل أنّ الفقرَ عورةٌ لا يسترها ما على وجه الأرض من ورق التّوت؟ ليتني سمعتُ من البداية كلامَ أبي المجرّب:

- لا تخدع نفسك يا بني. الغرابُ غرابٌ والحمامُ حمام.

يلقيها نكتةً على مسامع حبيبتي فتضحكُ... فيضحك الوردُ على وجنتيها ويفوح العطر.

- لا تصدّق . الغرابُ الأسودُ يخرجُ من البيضة كالحمامة سواء بسواء.

يرشقُها أبي بنظرةٍ أجهلُ معناها. يتناول من فمِه مسمارًا قبلَ أن يزرعَه في نعلٍ عتيق. يدقّهُ بعصبيّةٍ تجبِرُ حبيبتي على الهرب ملوّحة لي بيدها الرّخصة على أمل اللّقاء.

يدسُّ أبي يدَه في النّعل، يتحسّسُ مسمارًا أفلت من المِطرقة والسّندان. يهزُّ النّعلَ قريبًا من وجهي:

- الغرابُ يا بُني إن لم يفضحه لونُه وشَت به مِشيتُه، وشى به صوته.

كنتُ أديرُ ظهري منهيًا هذا الدّرس من رجلٍ جاهلٍ يتعالم. ليتني على الأقل راقبتُ يديه كيف تزرعان النّعالَ العتيقةَ بالمسامير. منذ

الصّغر وأنـا أعيـش فـي وهـم أنَّ المزبلةَ قد تُغافِل الفصولَ والمأمولَ فتُشـقّق عـن وردة حمراء تسترعي الانتباه.

هبّت الفتاةُ تسترُ عريَها وترطنُ بلغةٍ لم أفهمها. أظنّها كانت تسبّني وترمينـي بـانعدام الرّجولة والعجز. نفحتُها أكثرَ من السّعر المطلوب فابتسمتْ وشيّعتني إلى البـاب؛ ووقفتُ برهة أنظر إلى وجهي المنعكس علـى زجـاج الواجهة الورديّ؛ فلم أدر على وجه الدقّة إن كان علي أن أفخرَ بالنّظر إلى هذا الوجه؟ أم ألعنه وأهرعَ به إلى أقربِ رفّاءٍ أحذيةٍ ليضعَه بين المطرقة والسّندان كأيِّ نعلٍ عتيق.

تشرين أول ١٩٧٨م

الفأر والمصيدة

تمطّى في عينيه سؤالٌ كبيرٌ حولَ الدّافعِ لكلام الشّاب. لم يستطعَ هضمَ أنّ فتاةً أعجِبت به قبل أن تـراه. «هل في نيّة هذا الشّاب أن يسخرَ منك؟».

في حياته الّتي امتدت ثلاثينَ عامًا أو يزيد، كـان مؤشّـر قلبِـه دائـبَ الحركـةِ المُضطربة؛ يجعلـه فـي خـوفٍ مُتّصـل مـن أنَّ أصحـابَ النّوايا السيّئة يتربّصون به.

«هذا الشّاب معذور، فهـو لـم يختبر منك طوفانَ الغضب».

أقسـمَ على أنَّ مـا قـالـه صحيـحٌ وأنَّ الفتـاةَ بانتظاره الآن.

- أقسِمُ أنّها في انتظارك.

عزَّ عليه أن يكونَ سيّءَ الظنِّ إلى حدّ لا يصدّق حكايةً مشفوعةً بالقَسم؛ علاوةً على أنّه رأى في طرافةِ الحكايـة ميّزة تُغذّي فيـه الشّعرةَ الفاصلـةَ مـا بيـن الغرور والثّقة بالنّفس. «ولم لا تعجـبُ تلك الفتـاةُ بـك وأنـتَ شـاعرٌ مشهور ومشهودٌ لك بطـول البـاع والذّراع؟ ولكـن هـل تُراها أُعجبت بالدّيوان أم بصورتك على الغلاف؟ لقد فعلتَ خيرًا حين وقفتَ أمامَ المرآة قبل أن تخرج؛

فصفّفت شعرَك ورتّبت هندامك. ستجدك حتمًا أفضلَ من الصّـورة بكثير».

قال بمرح ليمسحَ مـا علـى وجـه الشّاب مـن ارتبـاكٍ وحرج:

- لم أصادف من قبل مَن هو في مثل نبلك.

- هي أمانةٌ أوصلتُها بأمانة.

- أكرّرُ... أنت نبيل.

تولّت ملامحُه رسمَ لهفةٍ ما لبثَ أن نـدِمَ عليهـا حيـن كشفَها الشّاب بعين على ما يبدو خبيرة بالنّفوس:

- هي في الدّاخل تنتظرُ مثلَ هذه اللّحظة الفريدة.

عادت إليه مخاوفُه من أن يكونَ قد استُدرِج إلى لعبـةٍ سخيفةٍ تقصُّ أجنحةَ آمالِه قبـل أن يطير. «لو تتريّث حتّى تختبر هذا الشّاب».

هذه هي المرّة الثّانية الّتي يراه فيها. المرّة الأولى كانت حين جاءَ يحملُ نسخًا من ديوانِه الأول كي يعرضَه على مكتبة الجامعة؛ فتبتاع منه.

لقد استقبلَه يومَها بغاية اللّطـف؛ وكذا الفتيات افترسنَـه بـلا هـوادة، وقـد رحّـب يومَهـا بالافتراس. وجدَها فرصةً للقفز على سلّم الشّهرة بمهارة قطٍّ لبِق. لم يكن قد تعوّد على الاهتمام

بمظهره؛ بيد أنَّ وسامتَه الفطريّة سدَّدَت عنه فاتورةَ النّقص فيما عداها.

تحلّقن من حوله، وحين عرفن أنّه شاعرٌ وأنّ قصائدَ ديوانِه كلّها مستوحاةٌ من عيونِ امرأةٍ واحدة قد تبخّرت من حياته للأبد؛ حاصرته العيونُ وكلٌّ منهن تطمح في أن تكونَ التّالية.

تفحَّصَ وجهَ الشّاب للمرّة المئة يقرأ فيه منابتَ الظّنون. وجدَه مسرحًا للبراءة. حنى رأسه موافقًا وسارَ من ورائِه يطفحُ بالسّرور.

«يا للفتاة الحالمة.هي راغبةٌ بقصيدةٍ واحدة تقولها فيها. فلتبشر بديوانٍ كامل إن كان لديها ما تُعطيه وما يستحقّ الذّكر. المرأةُ الّتي ألهمتكَ عيناها قصائدَ لاهبةً ملتهبةً لم تنل منها سوى النّظرات.

حين طالبتها بأن تفتحَ بوّابةَ صدرِها لتدخُلَ إليه بحقائبك والمتاع لملمَت عينيها ومضت. لن يخيبَ ظنُّ من تنتظرُك فيك. لم توطّن النّفسَ لمثل هذه المفاجآت؛ ولكنّ ملهمتك يومًا من قالت لك ما ترجمتهُ عيون الطّالبات إنّك جدًّا وسيم.

شعرٌ أسودُ مُطعّم ببياضٍ قالت عنه تلك المرأةُ الّتي ألهمتكَ عيناها قصائدَ فذّة إنّه أسلاكُ فضة. قامتُك مديدةٌ كالرّمح. أمّا

عينـاك ففيهما الحـلُّ والرّبط. لن تلبثَ هذي الفتاةَ أن تـراك فتعطيـك مفاتيحَ قلبها... يا للفتاة الحالمة».

يتوقّفُ الشّاب أمامَ بابٍ مغلق. يطرقُ بأدبٍ جَم. حالَ انفتحَ البابُ أشرقَت شمسٌ من بين أكداس الغيم. أعادَ إليه جمالُها الخـارق مخاوفـَه مـن أنّه استدرج إلى لعبـة سخيفةٍ أو كمين. انحنى الشّاب قائلا:

- الشّاعر.

رفعَت إليه عينين سبقتهما رموشٌ مُشرعة. رشّتَا عليـه رذاذًا باردًا في يومٍ حار. تركَـت مكانهـا خلـف المكتـب. تقدَّمت منه باسطةً يديها، غاصت يـدَه فـي مُخملٍ نـاعم.

أشارت إلى كنبة طويلة. جلسَ وجلست بجانبِـه لحظـةَ أشارَت إلى الشّاب أن يخـرج. التفتت إليه قائلـةً بصـوتٍ فاق جمالُه غناءَ كنار سمعهُ ذاتَ مرّة في حديقة غنّاء.

- تعالى ها هنا شوكٌ ووردُ.

أشارَت له بيدها أن يقترب. تبخّر في نفسِـه الحـذر. «هذه مفاجأةٌ أخرى. تحفظُ مقاطعَ مـن شـعرِك. لن يجـدَ الشّعرُ موطنًا أشهى من هاتين الشّفتين ولا صوتًا أعذب من هذا الصّوت».

قالت وهي تضع ساقًا على ساق غيرعابئة بما انكشف لعينيه من فخذيها الملفوفتين:

- قرأتُ ديوانَك فملأتني البهجةُ فاشتقتُ لرؤيتك.

ارتسمت في عينيه دهشةٌ مقصودة. فقالت مؤكّدة:

- صدّقني.

فرض عليه صوتُها التّصديق فرضًا. أمعنَ النّظرَ في عينيها. سلّمَ بأنّه سينقادُ خلفَها إلى الجحيم لو شاءت.

«عيناها بحيرتان يسبحُ فيهما البجع».

قالت مترنمة :

- ***عيناك من جمر وخمر***.

«تمتصُّ أشعارَك حتّى الثّمالة. ثغرُها شهدٌ مُصفّى. ليست امرأة ككلِّ النّساء. إنّها تسلبُك الوعي». يتحدّرعلى جبينه عرقٌ بارد. لأوّل مرّة يشعرُ أنّه منقادٌ بيدٍ سحريّة. إنّه لا يمثّل دورَ القيادةِ كما اعتاد.

«هذا الجمال وهذه الأنوثة لا يمكن للمرء أن يصادفَهما عفوًا كتحيّة الصّباح. تلك المرأةُ الّتي قلتَ في عينيها قصائدَ حاسمَة تبدو رغوةَ خمرٍ رديئة؛ أمّا هذه فمن لحاظِها تُعصرُالخمور».

قال وإحساسُه بالتّفوّق يملأُ منطادًا من الحجم الكبير:

- اكتشفتُ أنّني لم أنظر إلى عينيها كما يجب.

ضربته على يده الّتي يوضّح دائمًا بها قصدَه ومقاصدَه.

-وقولُك فيها: ***عيناكِ عصفورتانِ وأنا ظلُّ الشّجر؟!***

أبهجَه حفظُها أشعاره؛ وكذا عتابُها وتهافتُها عليه. لم يدر ماذا عساه يقول. يرى الكلامَ مسخًا في محرابها الجميل، يشعرُ أنّه باتَ لوحةً بيضاء وعيناها ترسمان عليه خطوطًا متوازية.

مدّت وجهَها نحوه قائلة بلهجةِ مَن يعرفُ قبلَ غيره أنّه جميل:

- انظر إلى عيني جيّدا كيلا تخطئ الحساب.

غمغم بانبهار:

- أنت يا سيدتي كنز، كنز حقيقي .

أشاحَت بوجهها تقززًا ونفورًا.

- ما هذا بشعر.

سقطَ في قلبه خوفٌ ماحقٌ مِن أن تنتهي هذه الرّحلةُ الجميلةُ بعطبٍ مفاجئ؛ قبل أن يبلغَ قطارُ الحبّ محطّته الأخيرة. يودُّ أن يعتذر، يهرب منه الكلام .

التفَتت إليه وابتسامتُها فراشةٌ تمازحُ نورًا:

- ديوان بأكمله استوحيته من عينينِ مطفأتين، فحريٌّ بـك أن تستلهمَ دواوينَ مـن عينـي.

ثمّ استطردت وهـي تتراجعُ بظهرها إلى الوراء؛ فبدا صدرُها أكثـرَ بروزًا وحضورًا:

- أم أنّك ترى هذا كثيرا عليّ؟

قال باندفاعِ وحماسةٍ مُفرطة:

- بدمِ قلبي أنظمُك وبدقّاته أزفّك.

استحمَّ وجهُها بالصّفاء. تبدّدت غمامـةٌ ثقيلـةٌ كـانت تغلّفُ قدرتَه على إدارةِ الحديث لصالحه. مطَّ شفتيه قائلا:

- تلك المرأةُ لا تمثّل أكثرَ من دمعةٍ عالقةٍ برموش عينيك.

طوّحت برأسها استياء. تأرجحَت خصلاتُ شعرها الفاحم .أصابه دوارٌ إذ قالت مؤنبة:

- من السّخفِ وأنتَ شاعرٌ ألّا تعرفَ أن أجملَ العيـون هي تلك الّتي تغسلُها الدّموع.

تلوّى قلبُه واجتاح وجهَه اصفرارٌ مريع قبل أن تكمل.

- ثمّ إنّي لا أحبُّ أن تكون هيَ باعثةً لهذا الجمال.

تطلقُ عليه من عينيها الرّصاص. لم يحسب حسابَ أن تعقدَ له في كلّ شبرٍ محكمةً يخرُجُ منها منتوفَ الرّيش.

غضبُها يجسّد فشلًا يراهُ دائمًا بالمرصاد له. قال وهو يرى أنّ خيرَ مُخلّصٍ لهُ من هذه الورطةِ البكاء.

- بل أنتِ مصدرُ الإشعاعِ لكلِّ شيء جميل.

زمّت شفتيها ونفخَت:

- مبالغة ممقوتة.

ترنّحَ قلبُه بضربة مفاجئة. يتوقُ أكثر للبكاء. تستديرُ نحوه لهفةً وضراعة:

- قل فيّ قصيدة. قصيدةً واحدة لا أكثر.

يُقلّبُ يديه في حيرةٍ وقد أصاب لسانَه الخدر.

- إنّني .....ولكن.....

وجهها يحتقنُ بغضبٍ ماحق وصوتُها يقطر سخرية:

- ولكنّك لا تستطيع أن تقول فيَّ كما قلت فيها: ***الفجر في عينيك إعلانُ بشائر***. ها؟

«تلك المرأةُ الّتي ألهمتك عيناها قصائدَ كاويـة لـم تنَـل منها غيرَ نظراتٍ مُشبّعة بالحيرة والخذلان... وها هي هذه تضعُ جسدَها الجُهنّمي بين يديك؛ فلماذا يتخشّبُ منك اللّسانُ وينبتُ الشّوكُ في حلقك والصّبّار؟».

رأى إليهـا تنـهـضُ ومـن ثمّ تـعـودُ إلـى مكانهـا خـلـف المكتب. تخِرُج الدّيوان. تهزّه بحنق:

- ما أسمعُه من عامّة النّاس في الشّارع يملأُ أضخـمَ الكتب والدّواوين.

ابتسم باستجداء. قال بنبرة تهزّها ريحٌ مُدمّرة:

- جمـالُك يستحقُّ أن تقـامَ لـه التّمـاثيلُ فـي الشّـوارع والميادين.

نتَرت جسَدها عن المكتب وصاحت:

-هراء. كلامُك هُراء. تدّعي الشّعر وتعجز أن تقولَ كما قلت فيها: ***تائهٌ أنا وعيناك في صدري منارة.***

ثمّ وهي تهزُّ الدّيوان كأنّما هو فأر ميت:

- ماذا تساوي ضحالتُها أمامَ احتياطي جمالي الخصيب؟ ماذا تساوي؟

يتطامنُ برأسه ويتراخى بين ساقيه. يشعرُ بـهـا تقتربُ منه. رفع رأسَه ببطء، قالت برفقٍ ووجهُها يصطلـي بنـار هادئة:

- ما أريدُه هو قصيدة، قصيدةً واحدةً تلهبُ مشاعرَ ذلك المغرور الّذي أحبّ .

خرجَت عيناه من محجريهما تتلصصّان على أذنيه.

رأى وجهها منبتًا للعواصف وعينيها جمرتين. رفّت عيناه دهشةً وذهولًا. يتحقّق من أنّه استُدرِجَ إلى لعبـةٍ سخيفة.

يشعرُ أنّه في هذه اللّحظة أحـوجُ مـا يكـون للبكـاء. «صـرخُ أحلامِك يتهاوى ويداسُ بنعل عتيق. ما توهمته قطارَ حبٍّ لم يكن سوى سكّةٍ قديمة يفرمُها قطار غيرِك وصـولًا إلى محطّة عشق».

يجمعُ أشلاءَ ذاته المُبعثرة. ينهضُ. يجـرُّ ساقيه إلى الباب. يخرجُ محنيَّ الظهر. يحرصُ على ألّا يراه أحد. ظلَّ يُطلِقُ الزّفراتِ إلى أن انتهى إلى البيت. لـم يطـق النّظرَ إلى المرآةِ فانهال عليهـا بـالدّيوانِ يهشِّمُها، يدوسُ أشلاءَها. أشلاءَه فيها.

كانون ثان 1974م

انتهت